الدكتور العقيد
عبد الرحمن زكي

معركة المنصورة

وأثرها في الحروب الصليبية

معركة المنصورة
وأثرها في الحروب الصليبية

الدكتور المهندس
عبد الرحمن زكي



مقدمة

إن دراسة التاريخ القومى فى معاهدنا يزداد شأنها يوما بعد يوم ، وفى تاريخ بلادنا الحربى ما يثير المشاعر ويدعم الوطنية . . وإن ما حدث فى عصور تاريخنا ينبئنا عن كثير مما سوف يحدث على رقعة الوطن ، فأحداث الأمس إن هى إلا تجارب فى حقل الحياة ، ينبغى للمواطن أن يفيد منها لاتقاء ما قد يصيبه فى الغد ، ومعرفة الصفحات المجيدة من تاريخ أمتنا تبعث على الفخر ، بل تحمل على التفاؤل بمستقبل الوطن ، كما أن التأمل فى فترات الاضمحلال فى تاريخ البلاد يوقظ فى النفوس الرغبة فى تجنب ما قد يؤدى إلى مثيلها فى المستقبل . وفى هـــذا كله — ولا ريب — مادة طيبة لتهيئة الشعور القومى فى سبيل البناء لمجد الوطن .

إن تاريخنا القومى من أغنى تواريخ الأمم على الإطلاق ، زاخر بالأحـــداث الجسام ، تتلاطم أمواجها منذ آلاف السنين دون أن يهدأ لها هدير ، خذ مثلا اتحاد الوجهين ، البحرى والقبلى فى أيام مينا ، ونهضة مصر فى عهـــد أحمس ، ثم فتوح تحوتمس ورمسيس الثانى ، وأمجاد الدولتين الأيوبية والمملوكية ، ثم يقظـــة مصر الحديثة ، وآخر تطور الجمهورية وتدعيم شخصيتها !

* * *

منذ غزا الاسكندر المقدونى — الشرق — بدأ النضال بين شطرى العـــالم — شرقه وغربه ، وجاء من بعده يوليوس قيصر ، والملك ريتشارد ، ولويس التـاسع ، ونابليون بونابرت ، ممن جعلوا وجهة مجدهم . فتح الشرق للسيادة على العالم ، كلهم ختموا حياتهم بالخيبة والفشل .

وقد مرت مئات السنين على أوربا ، وفى خلالها تطورت عقليات الاوربيين عدة مرات ، ثم بلغوا أوج الرقى المادى ؛ ولكن روحهم كانت عطشى للدماء ؛ تحن إلى حب التملك والعدوان ، بالرغم مما يتحدث به بعض الساسة من حب السلام فقهروا العالم بعلمهم وبسلاحهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكبحوا جماح أطماعهم ، أو يخمدوا مشاعل الحرية ..

حقيقة إن للغرب تراثا ضخما من العلوم والآداب والفنون .. ولنا نحن أيضا مثل هذا التراث الخالد .. ولكن القيم التى ما زالت تتسلط على الغربيين هى نفس القيم البدائية التى تعتمد على البطش والاعتداء . أما روح الشرق — شرقنا — فبالرغم مما يبدو فيها من العيوب ، نتيجة لظروف السنين التى مرت به ؛ ففى شرقنا وفى طبيعة كيانه شىء أعظم بكثير من كل اكتشافات الغرب .. يتمثل فى هذه الطبيعة تقدير ؟ للحقائق التى اكتسبها الشرقيون من المعرفة وانسجامهم مع الحياة .. كل هذه الاشياء مجتمعة سهلت للشرق النصر أمام كل اعتداء ، ولو عن غير طريق القوة ؛

لقد اعتدى الغرب على الشرق فى حروب شتى ، وكانت إعتداءات الصليبيين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مثلا صارخا على حب الغرب العدوان على ما هو ليس ملكهم ، وهم لا يكادون يخرجون من كل إعتداء بدروس يفيدون منها ؛ حتى يقعوا فى أخطاء أسلافهم . . وها هم أولاء إلى اليوم يعملون على إعادة ما اقترفه أسلافهم الذين أسموا أنفسهم بالصليبيين .

* * *

وهذا الكتاب الذى تقوم بنشره إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة ، وكنت فى يوم من الايام قد تشرفت بإدارتها ؛ ليس سوى صفحة من تاريخ بلادنا الحربى ، فى خلال مرحلة هامة ، تنطوى على حوادث عصيبة شهدتها أمتنا ، وخرجت فى أعقابها ظافرة منتصرة بعد كل ما أصابها من المحن .

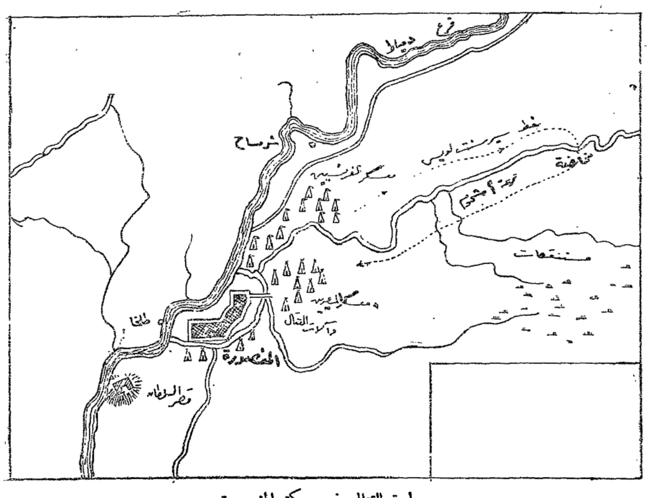
وفى هذا الكتاب تقابلنا شخصيات هامة فى تاريخنا ، ينبغى أن نجعلها دواما على

تقديرنا وتفكيرنا ، بين هؤلاء : صلاح الدين والظاهر بيبرس والفارس حسام الدين أقطاى ، وقطز الشهيد ، وغيرهم من الجنود المجهولين من أبناء الشعب الذين استشهدوا فى معارك الدفاع عن الوطن المقدس ،

ولسنا نبحث فى هذه الصفحات أسباب ونتائج الحروب الصليبية التى تنطوى على عشرات المعارك بل ومئاتها فى خلال قرنين من الزمان ، ولكننا تناولنا فيها فقط الحديث عن معركة المنصورة . ولست أعتبر مادة الكتاب فنية بحتة ، لان هذا يستغرق عدة أبحاث ، ويتطلب صبراً ووقتاً لا يتيسران لى الآن ، بل إن مادته مزيج بين التاريخ العام والتاريخ الحربى ، واعتقد أن هذا الكتاب محاولة لدراسة معركة المنصورة على ضوء ما دونه المؤرخون العرب وغير العرب وقد يفيد من مطالعته محبو الثقافة العامة وضباط القوات المسلحة وطلبة الكلية الحربية وزملاؤهم فى المعاهد .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه . والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل .

ابريل ١٩٦٠   عبد الرحمن زكى



ساحة القتال فى معركة المنصورة

الفصل الأول



الموقف فى سورية — حملات الصليبيين — عماد الدين بن زنكى — السلطان نور الدين — صلاح الدين الأيوبى — الوحدة بين مصر وسورية القتال ضد الصليبيين — خطة الهجوم على مصر — المغول بعد الصليبيين خاتمة الجهاد



كانت الحملات الصليبية من أبرز الحروب التى انطوت عليها صفحات التاريخ . ففى ميدان القتال بسورية ومصر اشتبك أتباع دينين فى صراع شاق ، استمر حوالى مائتى سنة .

كان الصليبيون الأولون يمضون إلى القتال وهم ينادون « هذه رغبة الله » . وقد طغت هيستريا الغوغاء على الرجال الذين أنصتوا للخطاب المثير الذى ألقاه البابا أوربان فى (كليرمونت) . ولا مراء فى أن خطاب أوربان كان مثيرا ، وأنه ملأ قلوب الرجال الذين لبوا دعوته بمشاعر التضحية .. ولكن إلى جانب هذا فإن هؤلاء الناس قد دنسوا الأماكن المقدسة فى فلسطين .. وقد اقترفوا من الآثام ما يحمر منه وجه المسيحيين خجلا ..

لقد تحدث البابا عن استعادة هذه الأماكن للمسيحيين، وعن تأمين الطرق إلى الشرق للحجاج المسيحيين . وهى مسألة شبيهة بتأمين الطرق البحرية للتجارة اليوم ، تحدث عما كان الأتراك القساة يرتكبونه من شرور ضد المسيحيين الشرقيين ، هذه الشرور التى كانت تكفى وحدها لإثارة نوازع الحقد والبغضاء فى قلوب الأتباع الذين لبوا دعوته . ولم ينس (أوربان) الكسب المادى "والكسب" الروحى . . . فالخلود من نصيب أولئك الذين يفقدون حياتهم فى سبيل هذه الدعوة ، والمدن الغنية فى أرض الميعاد من حق أولئك الذين يذهبون لغزوها — هذا من جانب ولكن من جانب آخر لم يذكر البابا الفائدة التى تعود على البابوية من أن يسير جيش كبير بأمره ، فيدرك الأباطرة بهذا أن هناك قوة مسلحة كبيرة تذعن له ، ولم

يذكر كذلك أن الكنيسة قد قاست الأمرين من الملوك والحكام ، وكأى رجل ممن يحسنون الدعاية ، ابان البابا أوربان لهؤلاء الذين تسمعوا لخطابه الأغراض الأساسية لهم والتي يتيسر إجمالها فى جملة واحدة (الأمن والهدوء للمسيحيين والموت لمن يخالفون تعاليم الدين المسيحى !..) وكانت نتيجة خطابه أكثر مما تصوره لها .. فقد بكى أولئك الذين أنصتوا له .. وهتفوا باسمه ، وبالدعوة التى يحض عليها . . وتسارع الناس لاعداد الصلبان وتثبيتها على أرديتهم الخارجية . وبدأوا يفدون من متباين الجهات ليسجلوا أسماءهم للمساهمة فى الحرب المقدسة . وكان تأثير خطابات المندوبين الذين بعث بهم البابا لنقل كلماته إلى الشعوب كبيرا، ولكن الفلاحين الجهال هم وحدهم الذين أثارتهم الدعوة للدين .. وإذا كان هناك غيرهم من القادة قد انصرفوا للقتال لاعتبارات دينية فان الكثيرين قد ساهموا فى الحرب من أجل أغراض الدنيا .

والراهن أنه لا ريب فى الحوافز التى وجهت جودفرى الذى كان يتلمس الغفران عن خطاياه الأولى محاولا إنقاذ روحه وضميره . ومثله فى هذا مثل روبرت النورماندى وروبرت الذى قدم من الفلاندرز .

ولكن لامشاحة أيضا فى أنه كان هناك الحافز الآخر فى إيمانهم بأنه من المستطاع أن تتوافر الفرصة فى هذه الحروب للبطولة والمجد .. على أنه حتى إذا كان هناك أى سبيل للظن فى الحوافز أو الدوافع الدينية لفرد ما فأمامنا شخصية رايموند الصنجيلى الجندى القديم الذى خاض أوار الحروب الأسبانية ، فانه ولا مرية كان يضع نصب عينيه الاستيلاء على الأراضى الخصبة فى الشام . ولم يك « بوهيموند أوف ترنتو » قد ذهب إلا باحثا وراء أمارة فى الأراضى الشرقية . أما الأشياع من غير الزعماء والقادة ، فقد كانت هناك عوامل شتى متباينة وراء اشتراكهم فى هذه الحروب ... فبعضهم قد ذهبوا تلبية للدعوة الدينية ، وبعضهم بدافع الملل من الصور المتماثلة فى الحياة التى يسلكونها، وخرج بعضهم بغية فى المخاطرة ، وبعضهم لأن الناس قد ذهبوا . ففيم إذن هذا البقاء والخروج على الاجماع !! إلا أن الشىء الذى يثير الدهشة حقا هو أن بعض الناس قد انطلقوا للقتال لسلاطة نسائهم !

على أنه مهما تفاوتت الأسباب وتلونت المسببات ، فمن المستطاع القول بأن معظم الذين كانوا قوام الجيوش الصليبية الأولى . . . كانوا مسحورين بالغرض الأساسى الذى دعا له البابا ، وبذا يتسنى القول بأنها كانت حربا دينية واستعمارية .

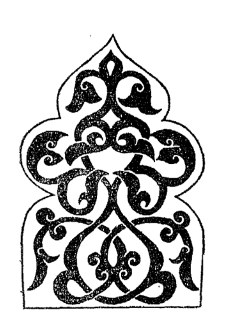
فاذا انتقلنا إلى الجانب الأسلامى طالعتنا تقاليد الجهاد ، فان معارك الفتح للمسلمين الأوائل — تلك المعارك التى عاونت على انتشار الجنس العربى — كانت جلها فى ضوء نشر الاسلام وحمل تعاليم هذا الدين الجديد إلى الأمم كافة . وفى عهد الخلفاء الأولين اضطلع المسلمون بمهاجمة أراضى أولئك الذين ظلوا أعــداء لرسالة النبى العربى وكانت الدعوة للجهاد هى التى سارت بأعلام الرسول من جبــال أطلس إلى حدود الهند .

فإذا تناولنا هذا وذاك فى موضع التقدير ، كانت حملات الصليبيين بمثابة الهجوم المضاد للهجوم الاسلامى فى عصر سابق ، ولهذا كان من الضرورى أن يقف المسلمون — بدورهم حينما يعملون ضد هجوم أتباع الصليب — متحدين وقفة رجل واحد للدفاع عن أراضى العروبة ولو كان الدين فى الواقع هو وحده العامل الذى بسط سيطرته على مسلمى ذلك العصر لكان هذا هو ما حدث ، بيد أن الذى حدث فعلا هو نقيض هذا .

ومما لا نزاع حوله هو أن الحروب الصليبية من وجهة النظــر الاسلامية لم تعتبر أكثر من حوادث الصراع الطويل فى سبيل سورية وهى وان كانت حروبا عامة فقد قدرت التقدير الكامل فى السجلات الاسلامية لذلك العصر إلا أنها لم تك قط الأعمال الحاسمة كما حاول كتاب الغرب أن يصوروها فيها . ثم إن هذه الحروب قد تجاهلها الخلفاء فى البداية نظراً لأن الصليبيين لم يسببوا ثمــة قلقا أو متاعب لمراكز الحكم الاسلاميه كما فعل الغزو التركى أو المغولى . . ولم تك لهذه الحروب أهميتها الكبرى التى تكفى لاتحاد العالم الاسلامى . . بل ولم يك من الممكن أن يكون لها هذا ؟ بل الواقع أنها بالرغم من أهميتها للعالم المسيحى — الأهمية التى كانت

أكبر مما يتسنى أن يكون لها من الجانب الاسلامى — فانها لم تنجح البتة فى أن تفضى إلى اتحاد المسيحيين .

ويتفق كل المؤرخين الآن على أن السبب الرئيسى لنجـــاح الجيوش الصليبية الأولى انما هو الخلاف فى الرأى الذى كان ناشبا أظفاره بين الولاة المسلمـــين فى سورية حينما وصلت القوات المسيحية إلى الشرق ... ثم عدم قدرة هؤلاء الولاة على التعاون فى وجه الخطر المشترك .. والجغرافية السياسية لسورية فى القرن الحادى عشر تبديها فى صورة قطعة الأرض غير المنسقة الأجزاء . . . . يحكمها أناس من مختلفى الملل والنحل .





فى فجـــر القرن الحادى عشر كانت سورية مقسمة بين الأمبراطورة البيزنطية والدولة الفاطمية فى القاهرة ، ولكن الفتح السلجوقى قد دمر هذا التوازن وخلف نوعامن الفوضى فى طول البلاد السورية . .

ولا ينظر إلى حملة ألب أرسلان (١٠٧٠ — ١٠٧١) إلا على هدى معركة مينزكيرت Manzikert حيث دمرت قوات البيزنطيين بينما أصابت قوة الفاطميين بعض التصدع نظرا لأن السلجوقيين من جراء هذه المعركة لم يغزوا فحسب جنوب الأناضول وشمال سورية ، بل اندفعوا جنوبا للاستيلاء على دمشق وبيت المقدس من المصريين . وفى الحقبة من السنين التى تلت هذه المعركة قسمت سورية إلى عدد كبيرمن الولايات الصغيرة بعضها مستقل استقلالا تاما وبعضها يتبع السلطان بالاسم . وكانت القوة الرئيسية فى سورية وفلسطين ممثلة فى السلطان تتش شقيق السلطان (ملك شاه) والذى فتح باسمه دمشق وبيت المقدس وعكا وأغلب سورية الجنوبية وفلسطين ، ثم وقف بأملاكه يفصل بين السلاجقة فى أطنة والفاطميين فى مصر . وفى عام ١٠٨٦ هزم تتش — سليمان بن قطلميش (Qutlumish) فى معركة من أجل حلب ، وبدا وكأنه يكاد يصل إلى السيطرة والسيادة فى سورية بيد أن ثمـــار هذا النصر انتقلت إلى ملك شاه الذى استولى على المدن الشمالية ونصب بنفسه أمراء مخلصين له فى حلب وأنطاكية والرها .

وحينما وورى التراب ملك شاه فى عام ١٠٩٢م حاول تتش أن ينتفع من الفرصة التى تهيأت له بالحروب الأهلية التى نشبت بين أبناء السلطان ، وأسرع فأرغم ولاة المدن السلجوقية على تقـــبل حكمه والوصول شرقا إلى مركز السلطنة فى عام ١٠٩٤ ،

ولكن بارقيارك الابن الأكبر لملك شاه نجح فى توطيد أقدامه فى العرش على حساب أخوته وأعاد جيوش عمه إلى سورية . ومع هذا بقيت دمشق وجلس تحت سلطة تتش كما بقى عاملاه توروس الأرمنى وابن أرتق يحتلان الرها وبيت المقدس على التوالى ، فلما مات عام ١٠٩٥ ورث رضوان بن تتش حلب ودمشق، ولكن الفاطميين غزوا المناطق الجنوبية وطردوا « الأرتقيين » من بيت المقدس عام ١٠٩٦ ويلوح أن برقيارك لم يعن كثيراً بالحوادث التى تمر بسورية ، ولعله قد قنع بسيادته غير التامة الوضوح على أبناء تتش وان كان قد عاون قائده « قاديجا » الذى استولى على الموصل .

على أن هـذا التصوير السريع للموقف فى سورية يمكن اعطاء صورة غير كاملة للاضطراب الذى كان يفشو عند دخول الصليبيين إلى الأراضى الشرقية ، فالقليل من الأمراء يرجعون بالأمر إلى السلطان أو غيره . . بيد أنهم يقفون من بعضهم البعض موقف النزاع والخصام ففى كل من الموصل وحلب ودمشق وبيت المقـدس وديار بكر وغيرها من الحواضر الاسلامية ولاة ، كل منهم يفكر فى زيادة سلطانه على حساب جيرانه ، وكل منهم لا يستطيع أن يثق بالآخر . . ولهذا كان التعاون بينهم مستحيلا بدون شك . وكل ما يحتاجه الصليبيون هو أن يكونوا فى قوة تمكنهم من الوقوف تجاههم ووأد الواحد تلو الآخر . . .





وكانت أولى حملات الصليبيين موجهة صوب السلاجقة ، واستطاعوا بالتعاون مع البيزنطيين أن يستولوا على نيقية ، ثم هـــزموا الأتراك السلجوقيين فى معركة دوريليوم (Doryleauem) (أسكى شهر)

وبالرغم من أن أمراء سورية قدأحسوا بالتهديد الذى يواجههم فانهم لم يرفعوا يداً واحدة لمعاونة الأتراك رغبة منهم فى هزيمة جيرانهم الشماليين الذين ينافسونهم ويناصبونهم العداء .. ثم وصل الصليبيون إلى أنطاكية وحاصروها ، وكان ياجيسيان أمير أنطاكية عامل بارقياك ، وهوعلى علاقات سيئة مع كل من رضوان ودوقاق ولهذا فانه ما كان ليتوقع أن تصله أية معاونة إلا من الموصل . وقد جاءته هـــذه فعلا . ومن الصحيح أيضا أن بعض الجنود من حلب ودمشق قد هبوا لمعاونته وانضموا إلى القوات التى جمعها قربغا لإنقاذ انطاكية لكن يقال أنهم تخلوا عنه فى ساعة المعركة فهزم . وبينما كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية جاء مبعوثون من الفاطميين يحملون الهدايا ويتحدثون عن تحالف وإياهم ضد الأتراك ، وعلى ذات القياس هب الولاة للمناطق المسيحية . أولئك الذين كانوا يخضعون لسلطان المسلمين ينضمون للصليبين ويعاونونهم فى حملتهم .

أما الأمراء العرب فبدلا من أن يتحدوا للقتال فقد ظلوا متفرقين ، كل منهم يفكر فى أن يقدم المال للصليبيين ويتركهم يمرون بأرضه أملا فى أن يهزموا لدى اشتباكهم فى الجنوب بقوات أكبر وأعظم . . . وفى موجة الفوضى والاضطراب لم يك الناس يعنون بصاحب الأمر ، وكيف لا ! .. وقد ألفوا تغيير الحكام والولاة وفى عصر متقارب ولى الأمر البيزنطيون ؟ فالأتراك فالعرب ، فالفرنجة ، ولا هم

لهم فى هذا ولا اهتمام ، فالسكان المسيحيون يأملون فى معاملة أحسن على يد الغزاة ولهذا عاونوهم ، والسكان من المسلمين كانوا قد ملوا حكامهم ولهذا لم يقدروا الأمر من ناحيته الاستقلالية ولم يفكروا فى المخاطرة والقيام بمقاومة منظمة .

والشىء الذى لا يقبل الانكار أنه فى خلال احتلال الفرنجة سورية بقيت الحروب متصلة مستمرة بين المسلمين والمسيحيين فيما عدا بعض سنوات هادئة تخللت فترات ما بين بعض الحملات . أجل ! كانت الحروب هى الصورة الطبيعية للحياة ، وقليلة هى السنون التى سجلت فى تاريخ مملكة بيت المقدس التى لم تحدث فيها عمليات عدائيه فى صورة ما ، على أنه لم تك توجد فى ذات الوقت ولاية ما فى غرب أوربا لم تشهد مثل هذه الحروب الصغيرة التى كانت تشهدها الامارات الصليبية .

ولم يك فى وسع قوة ما أن تسيطر على سورية بنجاح دون أن تكفل السيطرة على ساحل البحر .. ولم يك فى استطاعة السكان الذين يقيمون على الساحل أن يضمنوا السيطرة عليه ما لم يسيطروا على الداخل . ولهذا فقد كان من الضرورى بالتبعية أن يستمر الصراع بين سكان الولايات المتضادة ، وهذه الحقيقة الواضحة يثبتها بسهولة استعراضنا للسياسة السورية . ولا مرية فى أنه كانت بين الولايات الاسلامية المتقاتلة عدة حروب كتلك التى بين المسلمين والمسيحيين . كما كانت هناك بين الأمراء المسيحيين مشاغبات كثيرة العدد ، كتلك التى تحدث داخل أمارات المسلمين . ولم يقف الدين عقبة قط فى إنشاء محالفات بين أناس من دينين متباينين للعمل ضد خصم يماثل أحدهم دينيا ، وكان للمحالفات غير المقدسة بين المسيحيين والمسلمين تأثيرها الكبير فى تاريخ الدويلات اللاتينية فى سورية .

وسرعان ما تعلم المسيحيون الغربيون الذين أقاموا فى سورية كيف يعيشون مع جيرانهم المسلمين على الأقل فى الصورة التى يعيشون فيها مع أشياعهم المسيحيين . وتعلم رجال كلا الدينين أن يحترم كل منهما الآخر بسبب الصفات التى تتوافر فى كل وفى غمرة مماشاة مسيحى الغرب لصورة الحياة فى الشرق اتخذوا لأنفسهم صورة الثياب والتقاليد الشرقية ، ولم تلبث الطباع العتيقة للفرنجة أن بدلت منها ليونة

ومرونة أهل الشرق . وفى الوقت نفسه انتهى المسلمون إلى تقدير شجاعة واخلاص وولاء الفرنجة كما استطاعوا أن يدركوا شيئا من هذه الصفات . وكانت ارتباطات الصداقة والود بين الأمراء المسلمين والمسيحيين شيئا عاديا ويجد من يقرأ « ذكريات أسامة بن منقذ » الكثير عن حفلات الصيد والقنص والمنافسات الرياضية بينهم ، أما فى الطبقات الدنيا فان الاتصال المتوالى فى مسائل العمل ونظام الحياة اليومية العادى لم ينفك أن طغى على الخلافات الدينية ، ومحا التزاوج بينهم كل عداء بسبب الجنس والدين . وفى المدن التى أقام فيها هؤلاء الصليبيون الأولون تلوح هذه الحقيقة من تكون بيئة متحدة حينما نرقب أطلال كنائس الصليبيين وحولها أطلال وآثار مبانى الأهلين المسلمين . وهذا الامتزاج بين الشرق والغرب قد تمخض عن مدنية كانت فى كثير من المناحى أعظم وأرقى من أى مدنية شهدتها أمة ما فى ذياك العهد ، وفيها يتسنى أن نجد البويضات للتطورات التى صحبت عصر النهضة فى أوروبا .

وينبغى دواما عمل حد فاصل قاطع بين صبر ومرونة الفرنجة الذين عاشوا فى سورية وبين التعصب الدينى للصليبيين الجدد الذين أتوا آنذاك من أوروبا . والواقع أن أولئك الأولين قد عاشوا مع جيرانهم من المسلمين أحسن مما عاشوا مع حلفائهم الغربيين ، حتى أن الأسقف ويليام قد أعلن أسفه وحزنه لقطع العلاقات الودية مع مصر ، والشىء الذى أفضى إلى توقف الحركة التجارية معها . وفى مجالس مملكة بيت المقدس كان البارونات الذين قدموا حديثا من الغرب هم دائما الذين يحرضون على القتال والحرب ضد المسلمين .

فالراهن أن رجال الدين المحترفين من كلا الطرفين هم الذين كانوا يثيرون الدعوة للحروب الدينية ، وكانت هذه الدعوة لا تنجح إلا مع الحكام الذين يزعمون لأنفسهم وللناس أنهم حماة الدين المدافعون عنه ، وتوضح التواليف التاريخية مضمون هذا . بل والغريب أننا حين نطالع كتابات المؤلفين الغربيين أمثال امبرواز وجاكيه دى فيترى نجدها ملأى بالحملات والاتهامات للمسلمين بينما نلقى مؤلفات كتاب الفرنج أمثال الأسقف ويليام وفيليبدى نوفارو خالية تماما من التعصب الدينى .

ويبدو أن « جروسيه » كان يرى أن هذا الاحتمال أو الصبر أو المرونة نوع من الضعف ، وأن هؤلاء الفرنج الأولين والأجيال التي توالدت عنهم كان مآلهم الفشل في إدراك الغرض الرئيسي من الحملة . في حين أن انعدام هذا التعصب الديني هو في الواقع دليل ازدياد المدنية . على أنه بالرغم من مثل هذه الآراء العدائية ليفترى وجروسيه ، فلا توجد أدلة ضعف معنوى بين هؤلاء الفرنج في القرنين الثاني والثالث عشر ، بل وقد ظل هذا الدافع الديني بين الصليبيين الأولين طوال حياة أولئك الرجال الذين أمسكوا بزمام القيادة . وكان أبناء الجيل الأول يعرفون الكثير من المسائل بينهم وبين جيرانهم .. وإن كان من الصحيح أيضا أنهم كانوا يعتبرون سورية المسلمة هي الأراضي التي وعدوا بها ولم يحتلوها بعد إلى أقصى ما تحمله هذه الكلمات من معنى ولما كانت الأرض كلها من وجهة عامة محتلة بالمسلمين فمن اللازم أن تغتصب من المسلمين .

وتقدم حياة تانكريد (Tancred) — أحد أبطال الصليبيين الأول وأحد الطغاة غلاظ القلوب وخاصة في خلال الفترة التي حدثت فيها المذبحة الدامية لتقتيل المسلمين في بيت المقدس — الدليل الواضح الصحيح على أن قادة الصليبيين كانوا يعملون بسياسة تتجه لتنفيذ الهدف الأساسي للحملة بالعمل ضد المسلمين في الصورة التي تتمشى مع وعرة حديث البابا أوربان ، وكان تانكريد هذا يريد أن يؤلف ولاية كبيرة إلى أقصى ما يستطيع ، وسواء استولى على الأراضي من المسلمين أو الروم أو الأرمن أو الفرنج فان الأمر لا يعنيه في كثير أو قليل ؟ وقد قضى جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً في هذه المحاولات دون أن يجهده أي شيء .

ومن الطبيعي أن يتوقع الفرد أن تكون الفترة من السنين التي تلت وصول الصليبيين الأولين إلى سورية مباشرة ، مليئة بحروب دينية وكفاح حتى في هذه السنين — تتلقى بعض أمثلة حسنة لمعاهدات ومحالفات بين المسلمين والمسيحيين ، على أن الاضطراب والفوضى اللذين جاء بهما الصليبيون إلى سورية قدما للأمراء المسلمين فكرة لها خطورتها وهي أن يهاجم كل منهم الآخر . . وأن يزيد من ممتلكاته على

حساب جاره منتفعا من المصاعب التي يواجهها من جـــراء انقضاض الصليبيين على أطراف أراضيه ينتزعونها منه ..

ففي عام ١١٠١ م بينما كان أمير حلب يدافع عن أمارته ضد تانكريد هاجمه جمال الدولة والى حمص ، وفي عام ١١٠٥ م تحالف بكتاش مع الصليبيين ضد شقيقه. وكان أمير حلب أكثر اهتماما بصراعه ضد شقيقه في دمشق من اهتمامه بقتال الصليبيين ليتجه بكليته للحرب التي يبغى إثارتها ضـــد بلاد النهرين . وإذا كان المسلمون قد أثاروا فيما بينهم منازعات عنيفة لا تتوقف فان الصليبيين لم يكونوا أقل منهم انصرافا إلى هـذا أيضا — فان تانكريد قد حارب الروم والأرمن كما رأينا وهم مثله من المسيحيين الذين يحملون الصليب . وقـــد قاتل طويلا ضد رايموند وبلدوين وجوسكلين ، وفي مجرى هذه الحروب كان الجانبان يتعاونان بالمسلمين فوقف إلى جانب كل من الطرفين المتخاصمين بعض الأمراء المسلمين يعاونونه ويشدون أزره ، بل قد عاون تانكريد الأمير مودود في الاستيلاء على الموصل !

وكان مودود قد أتى إلى سورية مبعوثا لشقيقه السلطان محمود بن ملك شاه لغرض محدود ، هو طرد الفرنجة الصليبيين من آسيا ، وكانت هذه هي أول محاولة محدودة من السلطان لايجاد اتحاد بين المسلمين في حرب دينية ضد المسيحيين . وفي السنوات من ١١١٠ إلى ١١١٣ م استطاع الأمير مودود أن ينشىء نوعا من الحلف مع بعض الأمراء المسلمين لمواجهة حلف آخر بين الصليبيين ، على أن كل هذا التحالف من الجانبين في الواقع لم يك مستقرا تماما . وقد عاون بلدوين أمـــير بيت المقدس وتانكريد بلدوين دى بورج لانقاذ أملاكه في الرها من غزو المسلمين ، بيد أنه لم يفتأ هؤلاء الثلاثة أن تنازعوا وراح كل منهم ينقض على أملاك حليفيه . وفي عام ١١١٥ م تلقى حلفا آخر بين الصليبيين لمقاتلة جيوش السلطان التي يقودها الحمداني أمير حلب وشيزر والى حمص .

بيد أن كل هذا لم يلبث أن انتهى وعاد المسلمون أنفسهم إلى التنازع لا للبقاء بل للكسب . فلما وجد هؤلاء أن هذا التنازع انما يعود بالكسب على روجر أمـــير

أنطاكية الذى انتفع بالفرصة للانقضاض على أطراف ولاية حلب . . . عاد المسلمون إلى الاتحاد تحت زعامة الغازى أمير ماردين ، اتحادا أفضى إلى هزيمة قوات روجر بل وهزيمة الصليبيين جملة هزيمة منكرة فى عام ١١١٩ م ومثل هذا الاتحاد لم يلبث أن تفكك عقب موت الغازى .

وفى عام ١١٢٥ م بدأت الحرب الأهلية بين الأمراء المسلمين ، وفى هذه السنة نفسها كادت حلب تسقط فى يد الفرنجة الذين كان يعاونهم الثائر ابن صدقة والذى كان قبل قليل قد هدد بغداد نفسها ، وكانت جرأة آق سنقر أمير الموصل هى وحدها التى أنقذت المدينة .

يتضح لنا بجلاء من هذا العرض الموجز أن ولايات الفرنجة ، حتى فى المرحلة الأولى للغزو ، قد انغمرت فى الشباك المتضادة المرتبكة للسياسة السورية بدرجة لا تتباين عن تلك التى تدخل بها الأمراء المسلمون فى الأمر . ولقد يتيسر القول بأن نوعا من التحالف الموقوت كان يحدث بين الولايات المسيحية للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين ، ولكن لم يتم قط تحالف جدى مستقر بين الأمراء المسلمين لمحاربة منافسيهم الغربيين فلم يتسن الاتفاق بين الخلفاء المتنافسين فى القاهرة وبغداد بل تبعا للخلاف والتنازع كانت الحروب تقطع الصلات الدينية باستمرار .

عماد الدين زنكي

وهذا الخلاف التقليدي للمسلمين .. قد بدأ بظهور عماد الدين بن زنكي على المسرح على أن ابن زنكي لا يستثنى اعتباره بحال ما — كما يقول كمال الدين عنه — البطل الاول للجهاد الاسلامى ، بل إن الخلاف بين كمال الدين مؤرخ ذلك العصر وبين و . ب ستيفنسون صاحب كتاب « الصليبيون فى الشرق » فى تصوير اتجاهات ابن زنكى يرجع إلى غزوه للرها فان كمال الدين يقول أن هذا حدث باتفاق أمير حران.. بينما يقول سيتفنسون « ولا ريب أنه كان يتجه لمنازلة منافسيه المسلمين ، وينبغى القول بأنه كان يتحاشى إلى أبعد غاية مهاجمة الولايات اللاتينية ، فى طوال عمله وتوسيع سلطانه وزيادة قوته كان يريد أن يكون طليقا من مخاطرات إثارة حرب شعواء بينه وبين المسيحيين .. وكانت غزوة الرها فى عام ١١٤٤ م ليست بالصورة الفذة فى حادثات حكمه بل يبدو أنه هو نفسه قد اعتبرها خروجا عن سياسته الخاصة نهض بها نتيجة إغراء فرد آخر .. لا لكسب مادى أومعنوى وإنما لإظهار ابن زنكى فى صورة المضطرب الذى لا ينتهج سياسة مستقرة .

ويدلل سجل حروب ابن زنكى ، وهو سجل زاخر بالحروب ، على صدق هذا . فقد كان بعيداً البعد كله عن أن يكون بطلا حقيقيا للجهاد الاسلامى، ففى عام ١١٣٢ م اتحد مع الثائر ابن صدقة — الذى رأيناه يحالف الصليبيين ضد المسلمين — فى مهاجمة الخليفة المسترشد ، كما بدأ صراع مستمر ضد إمارة دمشق .. ثم غزواته لحماة وحمص وحلب ، بل أن هذه الحروب كانت أهم فى نظره من القتال ضد المسيحيين . وبالرغم من أن أمارة الرها كانت آنذاك على امتداد خط تقدمه بل وبعد غزوه لحلب ، كانت تفصل بين أملاكه فانه لم يهاجمها ، ولم يمتنع حتى عن التحالف مع الفرنجة عند ما يكون هذا التحالف يتفق ومطالبه .

وحتى بعد أن غزا ابن زنكى الرها فى عام ١١٤٤ م لم يستثمر النصر الذى استحوذ عليه باحتلال أراضى الامارة كلها والتى كانت لا تزال تقوم بمقاومة لها على أية حال صورتها ، بل وجه نظره إلى الفرات العلوى .

وكون غزو ابن زنكى لامارة الرها يعتبر نقطة تحول فى تاريخ الولايات اللاتينية فى سورية ، مسالة يجب أن توضع موضع التقدير والنظر . فقد عجلت من المرحلة الثانية لحملة الصليبيين الذين سبب فشلهم فى المرحلة الاولى فى إدراكهم لاغراضهم الأساسية إزالة المخاوف التى كانت تملأ رؤوس المسلمين بالنسبة لهؤلاء الغزاة الذين أتوا من الغرب ، كما تدل على الخطى الاولى للمسلمين لاستعادة الارض من أيدى الصليبيين ، بيد أنه لا يتسق القول بأن هذا يدل على أى تحديد أو تطور فى السياسة الاسلامية . وقد غزا ابن زنكى الرها لانها تجاور أملاكه ، ولأنها بدت له كفريسة يسهل الاستيلاء عليها ، ثم لا شىء بعد هذا من وجهة نظره هو . وقد اتحد اللاتينيون مع أمير دمشق لان كلا من الجانبين قد وجد فى ابن زنكى خصما يجب أن يخشاه جيرانه ، وقد كان هذا الحلف كسبا حتى لابن زنكى نفسه ولمن خلفوه فى رعاية أملاكه . وإذا كان غزو الرها فى رأى ابن زنكى عند ما تم له النصر ، أقل أهمية من غزو حلب أو حمص ، فالواقع أنه قد ثبت بعد أعوام قلائل أنه أروع ما فى حياته ، وكان المرجع الوحيد لمجده ، يقول عنه المؤرخون المتأخرون فى عصور لاحقة إنه العامل الاول لمجد منشىء تلك الاسرة .. وأنه يكفى لان يجعله سيد قادة المسلمين الذين قاتلوا خصوم الاسلام ..

السلطان نور الدين

ولكن إذا كان ابن زنكى لم يتجه بكل تفكيره أساسيا إلى الحرب ضد اللاتينيين فان هذا لا يتسنى أن يقال عن ابنه نور الدين الذى خلفه فى امارة حلب . على أن الكثيرين من المؤرخين الذين أنكروا على ابن زنكى دعواه فى بطولة الحروب الدينية يقررون فى غير ما تردد أن فى نور الدين وجدت شخصية الامير المسلم التقى الذى كان هدفه الرئيسى هو تخليص الأرض من الملحدين غير المسلمين ، ومع هذا فقد يكون من الصعب على المؤرخ المحقق أن يقول بأن نور الدين كان أصلا يتجه بكل أحلامه ومطامعه إلى الحروب الدينية ، فلا ريب حقا فى أنه قد قضى الشطر الأكبر من حياته فى الصراع ضد الفرنجة .. ولكن هذا يتهيأ أن نوضحه بسهولة عندما نتذكر أن نور الدين قد ورث فقط الجزء الغربى من أملاك أبيه وأن وجود شقيقه سيف الدين غازى فى الموصل قد سبب فقدانه كل أمل فى اتساع أملاكه من طريق الاتجاه شرقا . وإذا لم توجد لنور الدين مطامع فى بلاد النهرين فان أمله الوحيد فى الاتساع كان فى الاتجاه إما غربا أو جنوبا ، أى نحو الولايات اللاتينية ودمشق ومصر . وإذا كان نور الدين قد حارب الصليبيين فانه قد غزا دمشق وبعث جيوشه إلى أراضى الخلفاء الفاطميين . وإذا كان قد أكثر من قتال الفرنجة فذلك لأنهم كانوا على الخط الطبيعى للاتساع بالنسبة له .

ولهذا فليس الدين هو الذى وجه سياسة نور الدين نحو جيرانه اللاتينيين بل كانت الرغبة فى اتساع أملاكه من الاتجاه الوحيد المستطاع هى التى وجهت هذه السياسة ، ولكن ليس معنى هذا أنه لم تك فى حروب نور الدين ناحية دينية . . . فان هذا لا يمكن قوله والتسليم به وهو رجل تقى بطبعه مخلص لعقيدته الدينية ، إلا أن

دراسة وبحث عملياته الحربية تبرهن لنا على أن الدافع الأساسى كان سياسيا وأن الدين فحسب كان العامل التالى للسياسة ، قصد به توطيد أقدامه داخليا لا أن ينتفع به جديا فى الصراع الخارجى ..

وقد وجهت أولى غزوات نور الدين ضد أقرب جيرانه إليه . . . الامارة التى يعرف أنها أول من تنتفع بأية فرصة لمهاجمته ، على أنه لكى يستهل حملته على أنطاكية عقد حلفا مع أمير دمشق ، ثم أن حقيقة إعداد أوربا لجيش ثان من أنصار الصليب أنفقت الكثير فى تسليحه كما أتمت التدابير اللازمة لاعداده وتوجيهه ضده كان ولا مرية العامل الأكبر فى أن يكون تواقا لأن يعمل بسرعة لتأمين نفسه ضد الاعتداء المتوقع من جانب الصليبيين . وعند ما قام هؤلاء بمهاجمة أصدقائهم القدامى فى دمشق بدلا من إمداد أمير أنطاكية بالمعونة التى هو فى مسيس الحاجة إليها كان نور الدين على أوفى أهبة لمعاونة حليفه الجديد ولذلك كان اقترابه بجيوشه من دمشق . وفى عام ١١٤٩ م وجه هذا القائد العربى حملة جديدة على أنطاكية بيد أنه لم يلبث أن نفض يديه منها من جراء وفاة سيف الدين — فقد رأى من الأصلح له أن يستولى على الموصل ولا يترك الفرصة تفلت من قبضته ، فلما وضع على عرشها أخا صغيرا له دار عائدا إلى دمشق حيث كان أميرها قد مات ، فكان موته فرصة حسنة له للتدخل فى الأمر ، ومن الطريف أن نلاحظ أن نور الدين فى ذلك الوقت قد وعد الصليبيين بصداقته إذا عاونوه فى الاستيلاء على دمشق .

وفى عام ١١٥٠ م اتجه مرة ثانية للشمال حيث غزا أرض الرها .. ليحول دون استيلاء مسعود أمير السلاجقة عليها ، وفى هذه الحملة اكتفى بالاستيلاء على مناطق قليلة ليضع حدا ضد أطماع أى فرد من أهل الشمال وليثبت حقوقه ومطالبه فى تلك المنطقة وفى عام ١١٥٥ م — عقب أن تم الاستيلاء على دمشق وأحس بنفسه طليقا من أية مخاوف بالنسبة لحدوده الجنوبية — فقد رجع إلى الرها . . . واستولى على أغلب أراضيها ؛ وهو فى هذا الصراع لم يك يستولى على أراضى اللاتينيين بل كان يستعيد الأرض من أتراك بلاد الروم ، ويمكن أن ندرك درجة رغبته فى تجنب

الحرب مع اللاتينيين عند ما ترتد الى معاهدة ١١٥٦م التى رضى فيها بأن يدفع لأمير بيت المقدس الجزية التى كان والى دمشق يدفعها ثمنا لحلفه مع الفرنجة .. ولهذا أيضا عند ماقامت الحرب بين نور الدين وبين الفرنجة عام ١١٥٧ م كان مرجع هذا اعتداء من جانب اللاتينيين .

وكان الفرنجة طوال الأمد الذى تلا سقوط الرها قد اتخذوا سياسة التمهل السياسى — أى سياسة تنظيم العوامل تبعا للغرض دون الاهتمام بمجريات الأحوال — فعند ما وصلت الى الشرق مجموعة الجيوش الصليبية الثانية لغرض واحد هو اعادة الاستيلاء على الرها وجهت هذه القوات — بسبب المنافسات الداخلية ولسياسة الأنانية التى ينتهجها صليبيو بيت المقدس الذين يعارضون فى القيام بحملات الشمال — الى دمشق بالرغم من الصداقة الوطيدة التى ظلت لأعوام طوال بين أهل دمشق وبين الصليبيين . والواقع أنه فى السنوات التى تلت وصول الصليبيين قسمت مملكة بيت المقدس بين بلدوين الثالث وأمه ميليسندى (Melissende) وحينما استقر الصراع من جراء هزيمة الملكة الوالدة وأنصارها وجه الملك بلدوين انتباهه إلى الاستيلاء على عسقلان التى حصل عليها من المصريين فى عام ١١٥٣ م ، وكان الاستيلاء على عسقلان آخر المناطق الهامة التى وضع عليها يد ملوك بيت المقدس وان كانوا قد حصلوا على هذه بثمن ليس بالقليل ، هو فقدهم بعض المناطق السورية ، استولى عليها نور الدين حينما كان الصليبيون مشغولين بالقتال فى الجنوب .

على أن الضربة البالغة التى لها خطورتها تأتت فى السنة التالية عند ما احتل نور الدين دمشق، واستطاع أن ينظم جبهة متحدة على طول الحدود الشرقية للولايات اللاتينية . ولم يظهر صليبيو الشمال من حدة الذكاء أو سرعة الخاطر ما يميز بينهم وبين جيرانهم الشماليين . فبينما كان بلدوين يقاتل المصريين الفواطم ويفقد المواقع على حدوده الشرقية .. لتسقط فى يد نور الدين راح رينو دوشاتيلون [1] الأمير

---

(١) هو المعروف فى المراجع العربية باسم أرناط .

الجديد لأنطاكية يقاتل فى سلسلة من المعارك مع أمراء أرمينيا وامبراطور بيزنطة وأتراك بلاد الروم السلاجقة .

واستأنف الملك بلدوين القتال ضد نور الدين فى عام ١١٥٧ م ، بأن قام بحملة مفاجئة عبر الحدود الشرقية ، وفى عام ١١٥٩ م نظم حلف جــديد بين الصليبيين والامبراطورية البيزنطية وجاء الامبراطور جون كومنينوس على رأس جيش كبير . ولا مشاحة فى أن هذا الحلف كان شيئا خطيرا بالنسبة لنور الدين ــ ينبغى أن يحسب له ألف حساب . ولكن يبدو أن الامبراطور كان أكثر انصرافا إلى أن يؤكد سيطرته على مملكة أرمينيا (١) وانطاكية منه إلى التقدم داخل أراضى المسلمين ولهذا سرعان ما نفض الامبراطور يديه من الأمر عندما رضى نور الدين أن يطلق سراح بعض رجال الامبراطور الذين اسرهم المسلمون فى المعارك الأولى . ويقول شالا ندون من مؤرخى الفرنج لذلك العصر ان الامبراطور قد وجد فى نور الدين القرن العنيد الذى يصلح لمواجهة الفرنج ومنعهم من تهديد أملاكه من الشرق . وعلى أية حال فقد عقد الصليبيون صلحاً مع نور الدين وأطلقوا له الحرية فى رحيل مسلمى الشمال إلى مكة للحج ، الشىء الذى كان تواقاً لأن يناله من أعوام وأعوام .

على أن موت بلدوين الثالث واعتلاء شقيقة أمورى (أملريك) عــرش بيت المقدس فى عام ١١٦٣ م دفــع إلى المسرح بشخصية مستحدثة ، وجعل الحوادث تطرق دورة جديدة فقد كان أمورى حاكما ليافا وعسقلان منذ الاستيلاء عليها ، وكان أمورى كثير الاهتمام دواما بما يحدث فى الجنوب ، وسنحت لامورى فرصة ذهبية لا يتسنى أن تعرض كثيراً فى سجل التاريخ مكنته من أن يضاعف من قوته وشهرته فى الجنوب .. فقد ثارت فى مصر حرب أهلية بين زعمائها كان لزاما أن تضعف قوة الدولة ، وأن تمكن أمورى من التدخل كيف شاء فى شئونها . حرب بين ضرغام

١ ــ مملكة أرمينيا فى مكان ولاية أطنة فى جنوب الأناضول ، وكانت تغطى جزء الساحل الجنوبى من خليج الاسكندرونة وتمتد إلى قرب ثغر اضاليا الحالى .

وشاور على شيء واحد هو مقعد الوزير الأكبر للخليفة الفاطمي . على أن هذه المياه غير الصافية كان من المستطاع أن يجد فيها المتنافسان أموري ونور الدين سبيــــلا لاصطياد السمك ! وفي الوقت الذي كان نور الدين فيه يوجه نظره فقط للجنوب كان أموري يعمل بسرعة وانتهز فرصة فشل الفاطميين في دفع الجزية التي يبعثون بها لمملكة بيت المقدس منذ عام ١١٦٠ م فبعث بجيش كبير إلى أرض النيل ..

ولكن حمى النهر القديم سكان واديه مرة أخرى ، فنرى فيضان النهــــر يرغم أموري على التقهقر . ولكن الشيء الذي ظفر به المعتدي . . هو قيامه باستكشاف شخصي ، أبان له سهولة إيقاع البلاد في الشباك .

وفي ذياك العهد كان ضرغام قد طرد شاور من مصر الذي أفضى به الأمر إلى الالتجاء إلى دمشق ليستعين بنور الدين فدفع هذا بجيش كبير نحو مصر لاعادة شاور إلى مكانه وذلك بعد أن أغراه شيركوه على غزوها .

نعم ! وصل جيش السلطان إلى مصر منتصرا وأعاد شاور إلى الوزارة ثم ظل في مصر لاستكمال الوعود التي قطعها شاور على نفسه وهو طريد بعيد عنها .

ولكن لم يك لوزير يلي الامر على حراب الأجنبي أن يستطيع إتمام ما قطعه على نفسه من وعود في لحظة محنته ومساومته للأجنبي بأي ثمن .. وأضحى من الضروري أن يبحث شاور عن وسيلة تنقذه من هذا الضيق الذي يحــــل بأرضه بالرغم منه . فطلب من أموري أن يعاونه لطرد جيوش نور الدين من مصر . ونتيجة لهـذا قـدم جيش أموري مرة ثانية لمصر في ذات عام ١١٦٤ . واضطر شيركوه إلى أن يقبـل شروط أموري بأن ينسحب كل من الجيشين من مصر . بيد أن الصليبيين دفعوا ثمنا غاليا لازدياد قوتهم في الجنوب بأن فقدوا بعض قلاع الحدود الشرقية . . استولى عليهـا نور الدين خلال انشغال أموري بما يحدث في الجنوب . وفي عام ١١٦٧ م تـكرر الموقف نفسه فقام كلا الجانبين المتقاتلين بغزو مصر واضطرا مرة أخــــرى إلى الانسحاب من مصر .

صلاح الدين

وفى السنة التالية غزا أمورى وادى النيل ، وفى هذه المرة وصل القاهرة واضطلع بحصارها ، بيد أن شاور استدعى شيركوه فأرغم الصليبيين على الانسحاب من مصر ودخل العاصمة منتصراً ، إلا أن شيركوه هذه المرة كان أحسن تفكيراً فهوى بشاور من مركزه وعين نفسه وزيراً للخليفة الفاطمى ، وإذ مات بعد شهرين اثنين فحسب نهض بالعمل بدلا عنه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ...

واستهل صلاح الدين ولايته للأمر فى مصر كوزير للخليفة الفاطمى وكحاكم من قبل السلطان نور الدين . وطفق الصليبيون يفكرون فى انتهاج خطة جديدة ، ومالبثوا أن قاموا بمحاولة مليئة بسوء التدبير ، فقد بعثوا بحملة مشتركة منهم ومن القوات البيزنطية ، ولكنهم لم يحسنوا تنظيم الجدول الزمنى لعملياتهم وباءوا بهزيمة منكرة قبالة دمياط ، وصار صلاح سيد مصر ، بل قل تمت بذلك الحلقة الحديدية التى تحيط بأملاك الصليبيين من الشرق الأدنى .

ولو كان صلاح الدين قد بقى مخلصا الاخلاص كله لسيده نور الدين ، لسقطت الولايات اللاتينية كلها الواحدة تلو الأخرى فى حياة نور الدين نفسه ، ولكن صلاح الدين فى لفحة أطماعه وآماله فضل أن يتبع سياسة إستقلالية وفشل فى التعاون مع نور الدين !

وفى عام ١١٧١ م كان صلاح الدين قويا بدرجة تكفى ليواصل هذه السياسة ولم يعد فى حاجة إلى الاستتار وراء الخليفة الفاطمى ، ولذلك لم يكد الجالس على عرش مصر يوارى التراب حتى بقى العرش خالياً ودعى فى الخطبة للخليفة العباسى الذى يلى الأمر فى بغداد ... وبهذا لم يعد وجود للخلاف بين خليفتى الشيعة والسنة ، هذا

الخلاف الذى كان لوقت طويل معوانا للصليبيين ، وبات هؤلاء يواجهون جبهة متحدة من المسلمين .

قد تقبل المصريون هذا التغيير .. وان كان من الضرورى أن لا ننكر بعض ثورات داخلية للدفاع عن البيت الفاطمى ، وسببت واحدة من هذه الثورات قدوم جيش الصليبيين من صقلية ، بيد أن هذا الجيش باء بالفشل فى الاستيلاء على الاسكندرية أو دمياط وارتد عنها حسيراً .

وكانت الاضطرابات فى مصر هى السبب الأساسى الذى يعتذر به صلاح الدين فى عدم الانضمام إلى نور الدين فى حملاته ضد الولايات الصليبية ، وبينما كان كلا الاثنين نور لدين وصلاح الدين ينهضان بمهاجمة الفرنج والانقضاض على أملاكهم فان صلاح الدين كان يعنى دائماً بأن لا يخرج للقتال فى ذات الوقت الذى كان يخرج فيه نور الدين ، ومهما أحكم نور الدين الجدول الزمنى لتهيئة هذا التعاون فان صلاح الدين كان يقف لدى نقطة ما ليرجع منها قبل أن يصلها نور الدين ، وفى كل مرة كان يعرف كيف يتلمس المعاذير التى تصلح ليتقبلها نور الدين لايضاح سبب تخلف عامله فى مصر عن التعاون معه فى قتاله ضد الفرنج فى ذات الوقت الذى يخرج هو فية للقتال .

ولعل صلاح الدين كان يخشى أن يستخدم نور الدين غيره فى مصر أو لعله كان يعرف الأطماع التى تملأ رأسه هو وماذا كان يتعين عليه أن يفعل لو كان فى محل نور الدين . ولا توجد أدلة جلية على أن نور الدين قد شك فى إخلاص تابعه فى أى وقت ، ذلك لأن صلاح الدين فى الواقع كان كيسا فى امتهانه لتبعيته للسلطان نور الدين .. ولكن مع هذا فلا مشاحة فى أن نور الدين انتهى يوما ما إلى أن عامله فى مصر لا يتيسر الوثوق به إلى أبعد مما يستطاع أن يتحمله من تخلفه فى الانضمام عليه ومخاوتته . ولا ريب أيضاً فى أنه كان يعد حملة كبيرة ليسير بها إلى مصر ضد صلاح الدين حينما أدركته الوفاة فى عام ١١٧٤ م

وكان جل ما اضطلع به نور الدين وما وصل إليه من إضعاف الولايات اللاتينية .

فى سورية سنيا المناداة به كالمجاهد الأول . ولكن من البين حتى من هذا التصوير العاجل لحياته أن حروبه كلها قد وجهت باستمرار إلى غرض واحد ، هو توطيد دعائم ملكه فوق عرش سورية المتحدة وقد اتجه صوب الموصل فى وقت ما ليحتفظ بها لأحد أبناء الاسرة . أما للغرب فقد حاول باصرار وعزيمة أن يمد حدوده وأن يوسع ممتلكاته إلى غاية ما يستطيع . وقد قاتل السلاجقة الذين يحتلون بلاد الروم فى عنف وعزيمة كما قاتل الصليبيين الذين يملكون انطاكية ليؤمن حدوده الشمالية وقد اندفع للغرب فى سورية مستوليا على ما يمكن أن يستولى عليه حول ممتلكاته وأراضيه وكانت أظهر عملياته فى هذا الضرب من الحرب عملياته ضد دمشق .

والواقع أن نور الدين كان مثله مثل عماد الدين بن زنكى فى تلافى القتال ضد الصليبيين إذا استطاع أن يوسع أملاكه على حساب جيرانه المسلمين ، ولكن من جراء عدم وجود أى متسع من الارض فى اتجاهه للشرق اضطر مرغما على الاتجاه بغزوه للغرب والجنوب سواء أكان الذين يقاتلهم من المسلمين أو المسيحيين ، وسواء أكانوا من العرب أم السلاجقة أو المصريين أو الاغريق أو الأرمن أو اللاتينيين ، وكانت حملاته ضد الولايات اللاتينية توجه وفقاً للأوضاع الجغرافية وكان يتعين أن تسبق زمنياً غزوه لمصر ، هذا الغزو الذى بحث فيه شيركوه وصلاح الدين ، بيد أن الظروف وقد سمحت له بغزو مصر أولا ففيم البقاء والانتظار ؟ . وعليه أو على خلفائه أن يسدوا الثغرة ويحتفظوا بهذا المخرج إلى البحر بالنسبة إلى مملكته الداخلية البعيدة عن الساحل. وقد هيأت له مصر ما كان فى مسيس الحاجة إليه للانقضاض على مدن الفرنج من أكثر من اتجاه ، فقد أمدته بأسطول وقواعد بحرية يستند إليها ، ولكن كان صلاح الدين هو الذى حصل على هذه المنفعة وحده .

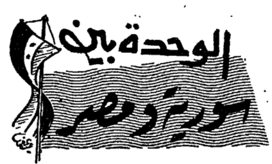
ومات نور الدين وأمورى ملك بيت المقدس فى وقت متقارب ، وخلا الجو لصلاح الدين . . وكانت الخلافات الداخلية التى صادفتها مملكة بيت المقدس بعد وفاة أمورى وتولى العرش ملك مصاب بالنقرس — فرصة ذهبية تعرض فجأة لصلاح الدين

كي يضرب لدفعة واحدة ضربة قوية ضد أعدائه وخصوم دينه .

كان من المتوقع أن يسهل صلاح الدين عمليات التوسع على حساب الفرنج الضعاف المنقسمين على بعضهم البعض . والحرب ضد الفرنج إذ ذاك كانت أسهل وأيسر من محاولة غزو سورية المسلمة . بيد أن صلاح الدين فضل أن يوطد قدمه في سورية قبل أن يهاجم الصليبيين ، فان الولايات اللاتينية ستحتل يوما ما ولكن على الصليبيين أن ينتظروا دورهم تبعا لرغبته هو مادام وحده سيد الموقف بأسره .



يحمل أعضاء الفتوة على دروعهم وأسلحتهم شعار الطاس والسراويل



وكان نور الدين يوم أن مات قد ترك مملكته لصبي في الحادية عشرة من سني حياته هو الملك الصالح ، وأعلن عدد كبير من الامراء الذين كانوا يتولون الأمر باسم نور الدين ثم من بعده باسم ابنه أنهم حماة الصبي . وتبدى في ذياك الوقت صراع عنيف بينهم بلا قصد حقيقي إلا الوصول إلى السلطة .

إلا أن صلاح الدين وثروة مصر الخصبة التربة تشد من أزره كان من البداية أقوى هؤلاء الامراء وأوطدهم قدما بلا منازع ، فاحتل دمشق في عام ١١٧٤ م وأعلن نفسه حامياً للصبي الذي يلي عرش نور الدين . ثم استهل تقدمه إلى حلب ، ولم يجد أمير حلب بداً من أن يستعين بالفرنج بل وأن يستعين بطائفة الاسماعيلية ، ولكن لم يلبث الحلفاء أن هزموا في حماة عام ١١٧٥ م . وهنا خلع صلاح الدين النقاب وكشف عن نواياه وطوح بالصبي عن العرش وأعلن صراحة أنه نصب نفسه سلطانا على الولايات الاسلامية التي تقع في غربي ممتلكات الخليفة العباسي ، ثم دعم قضيته بأن حصل من خليفة بغداد على هذا اللقب .

وكانت حربه ضد الافرنج في عامي ١١٧٥ و ١١٧٦ م هي في الواقع جزءاً من الحرب العامة التي أثارها على أمير حلب وحلفائه الذين ناصروه . وفي ختام ١١٧٦ م كان قد وضع يده على كل سورية عدا مدينة حلب وعدا الاراضي التي تعيش فيها طائفة الاسماعيلية ، وأحس آنذاك أنه يستطيع أن يرتد إلى مصر ليضع خطته لمهاجمة الولايات اللاتينية . ولكن بالرغم من أن الحرب ضد الافرنج قد استغرقت الامد من عام ١١٧٧ م إلى ختام حياته فانه لم يغفل قط عما بقي في سورية خارجا على سلطانه ففي عام ١١٨٢م تسنى له أن ينتهي من أمر حلب . وفي نفس العام نهض بحملة لبلاد الفرات . ووقع في عام ١١٨٥ هدنة مع الصليبيين لاربعة أعوام ليتيسر له في خلالها أن يصفي كل شئونه مع أمير الموصل .

القتال ضد الصليبيين

وقد يكون من الجهد تفصيل حملات صلاح الدين ضد مملكة بيت المقدس ، فهذه مكانها أصلح فى المطولات التى تكتب عن حياة صلاح الدين وحده، لانى بحث يتعقب الحوادث موجه أصلا إلى التحدث عن الدوافع الدينية والسياسية فى هذه الحروب التى نشبت بين المسلمين والصليبيين .

على أنه ينبغى أن نذكر فى هذا السياق أن الموقف الداخلى فى مملكة بيت المقدس كان يتطلب التدخل فى صورة ما ان آجلا أو عاجلا ، ولا يوجد سياسى يمكن أن يوزن بمعيار السياسيين يستطيع أن يترك الفرصة التى تسنح له نتيجة خلافات داخلية مستعرة تفلت من يده .. كان فى بيت المقدس حزبان متضادان يقفان على طرفى نقيض من الأمر كله : الأول مؤلف أساسياً من نبلاء الفرنج القدامى الذين جاءوا من أول الحملة الصليبية وهؤلاء تحت زعامة رايموند الثالث أمير طرابلس . والثانى يسمى « حزب البلاط » ، وهو مكون من الغالبية من النبلاء المحدثين الذين أتوا أخيرا من الغرب ويتولى زعامتهم جوى دى لوزينيان زوج الأميرة إيزابيل ، وجيرارد دى ريدفورت سيد الهيكل ، وجوسكلين دى كورتينى ثم ريجنالد دى شاتيلون [1] ، وقد ألح الحزب الذى يلتف حول رايموند الثالث فى الابقاء على علاقات الود مع صلاح الدين إلى أقصى ما فى الاستطاعة ، فقد كان هؤلاء يرون أن الأمل الوحيد فى الابقاء على مملكة بيت المقدس بل والإبقاء على حكم الصليبيين فى الشرق أن يقفوا من السلطان بمركز إحدى الولايات التابعة له اسما . وهم يعرفون أن

---

(١) أرناط فى المراجع العربية .

صلاح الدين لو رضى هذا سيحفظ لهم ملكهم لأن هذا القائد العربى كما تبين كل أعماله السالفة يحترم تعهداته إلى آخر قطرة من دمه . ثم أن ما فعله صلاح الدين مع ابنة نور الدين تجاه قلعة اعزاز وتكريمها والنزول لها عن القلعة بعد ان كبدته الكثير من الجهد والمال بل كاد يفقد عندها حياته بفعل جماعة الاسماعيلية . . يضىء لنا كرم محتده ونبل خلقه ورعايته لأبناء الملوك والأمراء ، فهو وان ابتغى أن يوسع ملكه فلا يبتغى أن يذل من عرفوا النعمة وواتتهم الحياة مجداً ... أما الحزب الثانى فقد كان حزب الحرب . . تسيطر على رؤوسهم أوامر الدين وقدومهم من الغرب أصلا للقضاء على المسلمين ، ثم أن جوسكلين بالرغم من أنه قد ولد شخصياً فى الشرق ونما وترعرع فى رحابه إلا أن كراهيته لرايموند الثالث كانت هى العامل الفعال فى الاتجاه الذى اتجه إليه . وكان رينو (أرناط) بدوره خصما للمسلمين ، خصما تبعاً للدين وللسياسة .. ثم أن الخمسة عشر عاما التى قضاها أسيراً فى سجن المسلمين لم تخفف من كبرياء الغرب التى تثبت فى كيانه . . . .

وهكذا كان الفرنج هم فى الواقع الذين دفعوا صلاح الدين دفعاً لغزو بيت المقدس . والواقع أن السلطان كان لزاما بعد أن دانت له الأرض الداخلية أن يعمل الفكر للاستيلاء على الساحل .. ولا شك أيضاً أن صلاح الدين لم يك ليرفض أن تكون ولاية بيت المقدس خاضعة له اسماً تعيش فى ظل نفوذه . وكان رينو هو علة هذا كله ، ولم يكتف أن هاجم مرتين فى خلال هذه الهدنة قوافل المسلمين وهى فى طريقها إلى مكة وسلب أهلها واستباح أفرادها ، بل أضاف إلى هذا كله حماقة أخرى أثارت العالم الاسلامى بأسره . فقد اضطلع باغارة لا ثمرة لها ، فى منطقة البحر الأحمر [1] ووجه اغارته ضد المدينتين المقدستين مكة والمدينة (١١٨٢ — ١١٨٣م). على أن هذه الاغارة الجنونية لم تفض إلى إيمان صلاح الدين بضرورة طرد الصليبيين من الشرق وحسب ، بل كلفت الصليبيين غالياً . فقد خسروا صداقة أمير الموصل

---

١ — كان الفضل فى هزيمة أرناط يعود إلى القائد حسام الدين وإلى رجال سفنه فى البحر الأحمر .

الذى رفض أن يحالف مثل هؤلاء الملحدين الذين ينتهكون حرمة المعابد الدينية. وبالرغم من أن أمير الموصل قد أعلن الجهاد وطلب من كل المسلمين فى العالم العربى معاونته فى حربه ضد المسيحية فلا مشاحة أن صلاح الدين لم يك لينضم لهذه الدعوة لقتال الفرنج إلا للقضاء على أرناط . وكيف لا ! وقد أقسم القائد العربى على الانتقام منه نظير ما فعله ضد الأراضى المقدسة . وفعلا نفذ قسمه بأن قطع رأس أرناط عقب معركة حطين . ومع هذا فقد حالف صلاح الدين ريموند امير طرابلس حتى بعد أن اعد العدة للحرب الختامية ضد الفرنج .

ولم يتبد صلاح الدين فى طوال غزوه للأمارات اللاتينية فى صورة المغتصب دينيا ، فان رحمته ونبل خلقه كانا مثار إعجاب خصومه قبل حلفائه واسبغ عليه مديح المؤرخين الذين عاصروه والذين نقلوا عنهم تسجيل قصة ذلك العصر ، ثم ان معاملته لأهل البلاد المفتوحة تخالف اصول القتال العنيف التى جاءت بها العصور الوسطى ، فان حراسته وحمايته للاجئين من المدن التى فتحها وإيصالهم حتى مدينة صور المسيحية الحصينة كان عملا إن دل على شىء فهو يدل على صورة رائعة من صور النبل الانسانى ، بالرغم من ان هذا قد زاد من عدد جنود حامية صور نفسها بحشد كل هؤلاء الأفراد فيها ، ومنع صلاح الدين من القدرة على فتحها .

وطيلة حروب صلاح الدين للفتح وإعادة الاستيلاء على الأقاليم السورية كان هذا القائد وكأنه يستميل إليه رعاياه الجدد ليضع بهذا اسس المملكة التى سيعيش فيها رعايا الدينين الاسلامى والمسيحى جنباً إلى جنب تحت حكم السلطان .

ويتسنى للفرد ان يفكر فيما كان من المستطاع ان يحدث لو لم تستطع أوروبا الدعوة لارسال حملة ثالثة جديدة من الصليبيين فى ذلك الوقت الذى تفشى فيه عناصر الفوضى والاضطراب ، ولو لم يجىء هؤلاء المسيحيون الجدد إلى الشرق لجنبوا مواجهة الشرور التى صحبت إغارة المماليك والمخاطر التى رافقتهـــا . ثم أن الكثيرين من بارونات سورية أمثال دى لوزيان وكونارد دى مونتفرار بطل الدفاع عن صور قد أبدوا رغبتهم فى خدمة صلاح الدين ورضوا بحكم مملكة بيت المقدس كولاية تابعة للسلطان .

وكانت الفترة الثالثة للصليبيين حرباً دينية تتوافر فيها جميع اعتبارات هذه الحرب ، وبينما لم يك أى من فيليب أوغسطس أو ريتشارد قلب الأسد مدفوعا بروح دينية تعادل على الأقل ما يأمل فيه من مجد وشهرة أو لما يؤمن به من أن هذا هو الشيء الوحيد الذى يستطيع أن يفعله ، إلا أن استجابة أوروبا لسقوط بيت المقدس وإعادة بروز الحرب الدينية كانت عاملا فعالا فى سياسة أوروبا .. وكان هذا بالنسبة لصلاح الدين تهديدا مباشراً للمسلمين ليدافعوا عما فتحوه أو بمعنى أصح عما استعادوه من المسيحيين واستثمار ما وصلوا إليه من كسب فى صالح القضية الدينية العامة — ومع هذا كله فان الفروسية قد لعبت دوراً فى هذه الحرب يعادل الدور الذى لعبه نور الدين . وبالرغم من أن صلاح الدين وقلب الأسد لم يتقابلا وجها لوجه فان كلا منهما كان يقدر للآخر خلقه وبطولته ، وكانت العلاقات بينهما فى هذه الحرب كالعلاقة بين رجلين شريفين يتنافسان فى سباق رياضى ، ولهذا فإن حزن قلب الأسد لفشله فى فتح بيت المقدس كان فى نظره أكبر من عدم نجاحه فى انقاذ الهيكل المقدس . ثم أن شروط المعاهدة التى ختمت تاريخ الصليبيين نفسها تبين الصورة الدنيوية التى كانت عليها الحرب فان كلا الجانبين كانا يستعدان لتجديد الصراع ومع هذا فقد نص على السماح للحجاج المسيحيين بالحج إلى المعابد المسيحية فى بيت المقدس تحت حراسة الجنود المسلمين . والراهن أنه فى ذلك العصر بالرغم من أن الدين كان يسود سياسة المسلمين فقد كانت النظرة الدنيوية الى الحرب واضحة فى سير القتال ، ولم يجىء — الاعتقاد الدينى اطلاقا — بتعصب أعمى من جانب الزعماء . كان غرض صلاح الدين هو فقط تدمير القوة السياسية للفرنج .. فهو لم يفكر البتة فى تدمير المسيحيين أو تقتيلهم ، وكان الغرض الذى هدف اليه أمير الموصل قد تيسر تخطيه .. فقد تمت الوحدة بين سورية ومصر ، ولهذا فان الغرض الأساسى لصلاح الدين أمسى الاحتفاظ بالامبراطورية التى فتحها ..

وكان القرن الثانى عشر هو أزهى عصور الصليبيين ، وكان القرن الثالث عشر بالنسبة لسجل تاريخ الولايات اللاتينية فى سورية بمنزلة الفصل الختامى لهذا السجل لأن بقاء الولايات اللاتينية وإعادة تنظيمها عقب الحملة الثالثة الصليبية ، ثم قدرة حكام

هذه الولايات على البقاء لنحو قرن من الزمان فى مواجهة صعاب قاسية مجهدة ، انما يرتد الى التنافس الذى قسم المسلمين ومنع أيا من حكامهم من اعادة توحيد سورية فى دولة واحدة قوية . وحينما استطاعت مصر أخيراً أن تصل الى سيادة مطلقة فوق جاراتها الشرقيات أضحت نهاية الولايات اللاتينية جلية فى الأفق ..

وتبخرت هذه الولايات لتصبح أسطورة فى سجل التاريخ ، على أن هذا لم يحدث بسرعة لأن هذه الولايات لم تعد بحال ما تهديداً للأمارات الاسلامية ، ولأن المسلمين أنفسهم كانوا جد مشغولين بما بينهم هم أنفسهم ، ولم يك لديهم الوقت الذى يتسنى أن يوفروه للاتينيين . وفى خلال القرن الثانى عشر وعلى الأخص فى نصفه الأول كان الخوف من أن يحاول الصليبيون العمل لاستعادة ما فقدوه هو سبب غل يد المسلمين عن مهاجمة المسيحيين حتى يتهيأ توطيد أقدامهم داخلياً ، وقد وجدوا فى بقاء الولايات اللاتينية الى حد ما الفاصل الجيد بين الولايات الاسلامية نفسها . بل الواقع أنه لم يتوافر لدى أى من قادة المسلمين الوقت الكافى للتفكير فى الصليبيين قبل الانتهاء من اقرار كل المسائل العامة موضع الجدل والخلاف .

ومن البين أنه كان فى ذياك القرن نفـــر من دعاة الصليب كان من المتيسر أن يكونوا معواناً صادقاً للولايات اللاتينية، بل والى حد ما أن يجعلوا منهذه الولايات عاملا مهما فى السياسة الشرقية ، بيد أن صليبيى القرن الثالث قد قنعوا بالابقاء على فرنج سورية دون أن يخلقوا أية متاعب للمسلمين . وقد يتهيأ القول بأن جنود الملك لويس التاسع كانوا شاذين عن هذا الحكم الاجمالى أو العام الذى بسطناه للدافـــع الدنيوى ولكنهم من الناحية المادية لم يفيدوا من الموقف بالنسبة لمملكة بيت المقدس .

وقد بعث أهل غرب أوربا بسيل من الرجال والمال لصليبيى القرن الثانى عشر وتلقى الصليبيون فى فجر القرن الثالث عشر معاونة مالية كافية ، ولكن فى منتصف ذاك القرن أحس الأوربيون بأنهم قد ضاقوا بالأمر كله ، بل وحتى البابوية نفسها كانت قد ملت ولم تعد لها أية مصلحة فى الأراضى المقدسة . ومنذ عام ١٢٠٨ شغلت

بحرب ضد الهراطقة فى أوربا البابوات عن الحرب الدينية ضدخصومهم الدنيويين. وتبدلت فكرة الدعاية للصليب فى الشرق الى دفاع عن معتقدات الصليب فى الغرب. وقبل ختام القرن الثالث عشر قام بونيفيس الثامن بحرب دينية ضد بيت كولونا ، ووجه البابا الجنود وأنفق الأموال فى الكفاح ضد الكرادلة الذين ينافسونه السلطة ولم يفكر جديا فى متاعب مسيحى الشرق المزعومة الا بدموع التماسيح!

وابتدأت دعوى الدفاع عن الصليب تتلاشى تدريجاً من أذهان النبلاء بالرغم من أنها قد بلغت الذروة فى أيام الحملة الصليبية الرابعة الا زهرة فرسان فرنسا وحدها وكون هذه الحملة قد تناست كل شيء عن بيت المقدس وأضحت مخاطرة رائعة للفتح فى بلاد الامبراطورية البيزنطية لدليل واضح على تبدل الآفاق والأغراض.

كانت الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية والولايات اللاتينية فى اليونان قد برهنت على أنها أكثر اجتذابا لانتباه فرسان الغـــرب من سورية ، بل وقد ترك بعض فرنج سورية بلادهم الجديدة للاشتراك فى صفوف القوات التى تقاتل فى الشمال. وماتت الروح القديمة من قلوب كل أولئك الذين اشتركوا فى صفوف المسيحيين فى معاركهم الأولى ، وزاد عدد غير الصليبيين على الصليبيين . . وكان الجميع يعيشون فى منازلهم يعنون بحدائقهم وينتفعون بمزايا الدعوة للصليب عن طـــريق الاستمتاع بالملذات.

وفى خاتمة القرن الثانى عشر ، أى فى السنوات الأخيرة لذلك القرن حدثت حملة صليبية هى تتمة للحملة الثالثة أكثر من أن تكون حملة جديدة منفصلة عن غيرها وكان المتيسر أن تغير مجرى التاريخ فقد دبر الامبراطور هنرى السادس أمر حملة عظيمة كان من المستطاع أن تدين له سورية وحدها بل هى ومملكة بيت المقدس الأولى والامبراطورية البيزنطية أيضاً ، وكانت الخطط لهذه الحملة العظيمة موضوعة باحكام ودقة .. وعقب أن وصل هنرى الى تعضيد ملوك قبرص وأرمينيا بعث بالفرق الأولى من جيشه الى الشرق . ولكن قبل أن يتمكن من الحاق هذه الفرق بالكثير غيرها مات الامبراطور هنرى السادس وانهار المشروع كله . وكان هنرى السادس

هذا واحدا من الافراد المحدودين الذين ماتوا فى زهرة شبابهم فى ذروة ما يمكن أن تصل اليه آمالهم وقد يمكن أن يكون المؤرخون أحرارا فى تفسير ما كان من المستطاع أن يتم على يديه لو عاش ليحقق أحلامه . بيد أن التاريخ لا يتهيـــأ له أن يكتب تقديريا عن شيء لم يحدث بافتراض حدوثه والتعليق عليه . . والواقع أن شيئا من الخطط التى رسمها الأمبراطور قد بلغ مرحلة التنفيذ .



خطة الهجوم على مصر

ومن الجانب الآخير فان المسلمين أنفسهم لم يتبعوا المثل التى رسمها صلاح الدين فلم يستكملوا أضعاف الولايات اللاتينية . فعند وفاة صلاح الدين قسمت أملاكه بين أبنائه ، وصارت مصر وحلب ودمشق ثلاث ولايات منفصلة أثارت فيما بينها حربا شعواء بدلا من أن تتحد ثلاثتهما لاستكمال طرد الفرنج من الشرق . ولم تقف هذه الحروب المحلية إلا حينما استطاع سيف الدين شقيق صلاح الدين أن يسيطر على الأرض كلها وينصب نفسه سلطانا على أملاك أخيه بأسرها . وكان حكم سيف الدين الذى استمر من ١٢٠٢ إلى ١٢١٨ فترة سلام وانتعاش للولايات اللاتينية ، فقد جرى سيف الدين على سياسة مودة وصداقة نحو الفرنج . بل وكانت تربطه بقلب الأسد صداقة ود .. فضلا عن أنه كان زوج شقيقته — هذا الزواج الذى كان يوما ما مثار نقاش وجدل حادين .

وكانت تربط سيف الدين بيوجين دى ايلين سيد بيت المقدس معاهدة وهدنة انتفع بها الجانبان فى إقرار مشاكلهما الداخلية . وكان من المتيسر أن تطول هذه العلاقات الودية لو لم ينقض الفرنج العهد قبيل وفاة السلطان سيف الدين بقليل تبعا لوصول صليبيين جدد من أوروبا تحت قيادة الأمير أندرو المجرى ، وكانت الفرقة الأولى من الحملة الصليبية الخامسة تقاتل فى سورية عام ١٢١٨ ولكنها فعلت القليل فى سبيل بيت المقدس .. بل وعاد جنود هذه الفرق إلى وطنهم قبل أن تصل مجموعة القوات الصليبية إلى الشرق للعمل ضد المسلمين بل وعند ما وصل الجزء الأكبر من هذه القوات فعلا فانه قد وجه للعمل ضد مصر التى كانت انتقلت بالوراثة إلى الملك الكامل أحد أبناء سيف الدين وكانت استراتيجية الحملة الخامسة معقولة ومنطقية. هذا وكانت الاعتبارات العسكرية قد أوضحت أن بيت المقدس صعب المأخذ واتجهت

الفكرة إلى أن مهاجمة مصر – والتى هى أسهل منالا – يمكن أن ترغم السلطان على أن يترك بيت المقدس ثمناً للسلم . ونتيجة لهذا التخطيط وجهت هجماتهم إلى دمياط عند مصب النيل . ولا مشاحة أن السلطان – كما كان مقدراً – قد عرض بيت المقدس ثمنا لاستعادة دمياط ، بيد أن بيلاجيوس رسول البابا والذى كان يسيطر على القادة الدنيويين رفض هذه الشروط وطالب بهزيمة كاملة للمصريين والسير إلى القاهرة ، وواصل الجيش سيره بالبر بتوجيه بيلاجوس حتى وصل المنصورة حيث أوقف تقدم الجيش من جراء فيضان النيل وأسلحة المصريين وأرغم الصليبيين على أن يسلموا كل ما استولوا عليه ثمناً لسلامة عودة النفوذ إلى سورية .

وكان الملك فى موجة متاعبه مع الصليبيين ، قد تلقى معاونة من شقيقه الملك المعظم أمير دمشق ، ولكن بمجرد أن انتهى الخطر استهل الشقيقان صراعهما لتقسيم الامبراطورية الاسلامية ، وحالف المعظم أتراك خوارزم وبنفس الأسلوب اتجه الكامل للغرب وحالف فردريك الثانى ملك صقلية كما حالف امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة وهو أحد المرتبطين بقسم للقيام بالدعوة للصليب .

وكون فردريك الثانى صليبياً مسألة بدت فذة فى تاريخ الحروب الدينية ، فهو لم يك متعصباً من الناحية الدينية .. بل ومن الناحية السياسية كان قد هل بجديد – وهو توليته الأمر فى ظل سلطة دستورية . والحق أن فردريك كان آخر شخص يمكن الظن بأنه سيتهيأ له أن يتولى قيادة حملة باسم الصليبيين ، إلا أنه قد أقسم على هذا يوم أن أعتلى عرش الامبراطورية فى عام ١٢١٥ م – ومع هذا فقد نجح فى تأجيل قيامه بالوعد الذى قطعه فى هذا القسم حتى تاريخ متأخر . ولكى يجعل البابا أمر بيت المقدس من الأهمية بمكان بالنسبة لفردريك .. ثم لكى يعزز الدوافع الدينية فى صدره نظم فى عام ١٢٢٥ أمر زواجه من ايزابيل دى بريين إحدى أميرات الممالك الصليبية ، ولا مرية فى أن هذا الزواج كان يثير فى نفس فردريك الرغبة للحصول على مملكة وملكا ، بيد أن أعماله التى اضطلع بها فعلا هى آخر ما يتسنى للبابا المتدين أن يتوقعها منه . فالأمر من ناحية مصلحة البابا وأطماعه لا يعنى أكثر من أن

يرسل فردريك حملة صليبية إلى الشرق الأدنى . ولكن الأمر من ناحية الامبراطور غير المتدين لا يعنى أكثر من الاستيلاء على مملكة فى أحسن تنظيم متيسر . وقد عرضت هذه الحال عند ما طلب منه الكامل أن يعاونه فى صراعه ضد دمشق على أن يكون بيت المقدس ثمناً لمساعدته العسكرية للسلطان . وقد بدأ فردريك لتـوه فى إعداد التدابير لهذه الحملة العسكرية على أن هذه التدابير كانت صورة شاذة إلى حد ما .. فان الامبراطور كان سيبدأ حرباً صليبية كحليف لأمير مسلم ، وستنقل جنوده فى أسطول من السفن غالبية بحارته من المسلمين !

ومات المعظم إذاك ولم تمد له من حاجة إلى حلفائه الغربيين ، بل إن المصريين لم يلبثوا أن غزوا سورية واجتاحوا الولايات الجنوبية . وفى ذات الوقت قدم من الشمال الملك الأشرف وهو الأخ الثالث للكامل والمعظم . نعم ! أتى الأشرف يطالب بتقسيم إمارة دمشق بينه وبين شقيقه على أن يأخذ هو دمشق نفسها ويأخذ الكامل كل ما هو فى جنوبها ، ولهذا لم يك من المنطق أن يترك الكامل لفردريك الجزء الأكبر من الأرض التى استولى عليها ثمنا لمعاونة لم يعد فى حاجة إلى استخدامها بيد أن فردريك كان قد وضع خطة يريد أن يرقب تنفيذها . وبينما أرسلت مقدمة قواته إلى سورية فى عام ١٢٢٧ فان القوة الأساسية لجيشه كانت تجمع فى برنديزى حيث كانت غالبيتها فريسة للمرض ، وكان الامبراطور نفسه بين المصابين . ولكن فردريك برغم مرضه ركب السفينة واضطر من جراء أشتداد المرض عليه أن يعود إلى الميناء وأوضح للبابا جريجورى الثانى عشر سبب عودته ، إلا أن رجل الدين نسب هذه العودة إلى دوار البحر وإلى استبدال السفينة التى تنقله . ولو كان جريجورى يعرف بالمفاوضات السابقة بين الامبراطور والكامل فانه لم يك ليشك فى نوايا فردريك فى الذهاب ، ولكنه ولا ريب كان لا يقبل هذا الحلف ولن يقر هذه المفاوضات .

وأبحر الامبراطور حينما استكمل شفاؤه وقد منح البابا بركته للحملة ، الشيء الذى لم يك ليفعله لو علم بحقيقة مسير فردريك . فان تعاليم الكنيسة تحول دون الاشتراك فى الحروب الصليبية بين من تربطه بالمسلمين اتفاقية وحلف .. بل ولم يك يدرى البتة بحقيقة هذه الحملة ومدى بعدها عن الدين

ولم يك جيش الأمبراطور فى قوة تكفى ليصل إلى شيء مما يأمل فيه باستخدام القوة ، بل والفرصة الواحدة التى انتهزها عند ما أدرك تفاهة قوة جنوده هى أن يضمن مطالبه عن طريق المفاوضات

ولحسن حظ فردريك أنه وجد فى الكامل رجلا مهذبا ، اجتماعى النزعة ، صبورا ، يشاركه فى فهم الصورة العامة ويستطيع أن يتفهم الموقف الذى يقفه كملك مسيحى بعث به البابا لإدراك غرض ما . ويقص المؤرخون المسلمون أن الامبراطور ذكر للسلطان بصراحة أن كل ما يعنيه من الأمر هو أن ينقذ سمعته . فبيت المقدس لا يعنيه فى كثير أو قليل وكل ما يدعوه لطلبها هو أن يصحح مركزه فى أوروبا . وكانت النتيجة أن رضى السلطان بأن يوقع معاهدة يعطى فيها مدينة بيت المقدس لفردريك مع احتفاظ المسلمين فيها بمناطق خاصة ، وللمسلمين كما للمسيحيين حرية العبادة فيها والحج إليها . وكرد على هذه المعاهدة حرم بطريرك بيت المقدس على المسيحيين دخول أماكن العبادة فى المدينة ، ولكن لا فردريك ولا أتباعه عنوا بهذا التحريم .

وربما كان من الخطأ اعتبار حملة فردريك من بين حملات الصليبيين فلا تتوفر لها الصفات التى كانت لكل الحملات الصليبية التى أتت بتوجيه البابا ، وهى فى نفس الوقت لا يتسنى اعتبارها حملة عسكرية لأنها لم تخض معركة ما ، فى حين أنها هى الحملة الوحيدة — فيما عدا الحملة الأولى — التى وصلت إلى الاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين فاذا حكمنا عليها من جهة النتائج كانت هى أكثر الحملات نجاحا إلا أنه لا يتيسر اعتبارها بحال ما حربا دينية لكلا الجانبين الذين اشتركا فيها .

وكان الكامل وفردريك متقدمين على عصرهما الذى ينبغى أن يجيئا فيه كرجلين من رجال التسامح الدينى ، كما أن كلا منهما كان يمثل المجموعة القليلة من العقلاء الذين فى تعاملهم مع أناس من دين آخر يتعين أن ينظروا إلى السياسة كشيء دنيوى ولا تمزج بالدين البتة . وقد ساهم كل أهالى سورية فى وجهة النظر هذه ، بيد أنه لا العالم المسيحى ولا العالم الاسلامى استطاع أن يصل إلى الذكاء بالدرجة التى تهيء من إدراك الحل الصحيح لهذه المشكلة قبل أن يتولى إقرار الأمر الملك الكامل والأمبراطور فردريك .

وكانت الفترة التى تلت هذا فترة اتجه فيها المسلمون والمسيحيون على السواء الى حروب أهلية داخلية هى فى الواقع تتمة لصراع خارجى ، وفى دراسة كتاب فيليب دى نوفارا أصدق مسجل لحوادث بيت المقدس فى السنوات من ١٢٣٠ الى ١٢٤٠ م لم يستطع الفرد أن يصل الى أن المسائل الخارجية لم تعن الرجل ، فقد شغل تماما بالصراع الداخلى فبينما تقوم الحرب بين المسلمين فان الفرنج ينقسمون فيما بينهم فى مساعدة طائفة من المسلمين على طائفة أخرى . كما أن المسلمين أنفسهم كانوا مشغولين بخصوماتهم الخاصة فلم يحاولوا قط أن ينهضوا بأى عمل ضد اللاتينيين ، وفى الوقت عينه نسى الكثيرون من الصليبيين القسم الذى اقسموه وحالفوا المسلمين ضد المسيحيين . . بل حتى أفراد الولاية الواحدة كان بعضهم يقفون الى جانب أهل دمشق والبعض الآخر يقف الى جانب أهل مصر . وحدثت بين المسيحيين أنفسهم فى خلال هذه الحرب الأهلية المحلية معارك دامية .

والأسوأ من هذا — الحروب التى وقعت بين أهالى شتى الجاليات الايطالية فى موانىء الشرق . . فكان أهل فينيسيا (البندقية) يقاتلون أهل جنوا وأهل بيزا يقاتلون أهل قطلان . . وكل هذا للوصول الى سيادة تجارية وسياسية فى موانىء المسلمين والصليبيين على السواء . وفى القتال الدامى الذى نشب فى عكا بين عامى ١٢٥٧ و ١٢٥٨ قتل أكثر من عشرين ألف رجل ، وكان هـذا القتال نوعا من الحرب الأهلية . . بدأ كشجار محلى بين الجاليات الفنيسية والجاليات الجنوية . وتطور الشجار الى قتال اشتركت فيه جماعات الفرنجه كلها ، وقد استعان طرفا القتال بملك قبرص والنبلاء الفرنسيين والفرسان التيتونيين بل وفرسان السلاجقة . وقاست عكا وسور الأمرين فى هذا القتال من تدمير وتخريب للجدران والأبنية واضطراب للتجارة ، واستمرت هذه الحروب المحلية قائمة فى الواقع حتى عام ١٢٧٧ عندما هدأت الحال باقرار حق أهل فينيسيا فى دخول صور .

ولم يك نبلاء الفرنج أنفسهم أقل إنصرافا الى القتال ، فقد مزقت الحرب الأهلية انطاكية فى الجزء الأكبر من القرن الثالث عشر إذا قاتل أمراؤها ملوك وأمراء الولايات اللاتينية للشمال والجنوب والشرق على فترات متتالية . . . وانتقلت هذه

الثورة نفسها الى بيت المقدس فى صراع بين ملك قبرص وعملاء شارل أنجو ملك صقلية ، ولحسن جد اللاتينيين ان مملكتى الأيوبيين فى مصر وسورية كانتا تشتركان فى صراع عنيف ، وساهم أمراء المدن الصغرى فى الصراع لا لشىء الا ليكملوا المعارك التى كانت أصلا قائمة بينهم هم أنفسهم . . ويوضح تاريخ الحملات الصليبية ثيبو — (Thibaut) أمير شامبين وملك نافارا وريتشارد أمير كورنوول فى عامى ١٢٣٩ - ١٢٤٠ كيف سببت هـذه الحروب الأهلية تدخل قوات جديدة من الغرب . . ثم كيف جعلت معاونة ومساعدات هؤلاء الغربيين أنفسهم مسألة تافهة لا قيمة لها . .

وقد استهل ثيبو حملاته الصليبية ضـد المصريين ، وفى معركة طاحنة هزمت قواته هزيمة منكرة واسر كثيرون من قادته ، ودعاه أمير حماة لمحالفته فتقدم نحو حمص فلما أدرك مخارجها وجد حليفه قد عقد صلحا مع المسلمين وتركه وحده ليتلقى الضربات وبدأ بقلعة صفد وغيرها من النقط القوية التى كان السلطان قد احتلها لو عاونه الصليبيون فى حملته على مصر . واتفق الطرفان وتحرك جيش المسلمين والفرنج جنوبا الى يافا ، وفى ذات الوقت فاوض آخرون من المسيحيين سلطان مصر للاشتراك معه فى منازلة أهل دمشق وحلفائهم على أن يطلق سراح اسرى المعركة الأخيرة لدى غزة ، وينبغى ان يلاحظ بان قلعة صفد وسواها من النقط القوية التى وعد بها سلطان دمشق حلفاءه اصلا ملك الصليبيين الذين وقفوا فى جانب سلطان مصر . على أنه قبل أن يبدأ القتال طفق ثيبو يفاوض المصريين متجاهلا محالفته للدمشقيين ، فهو لا يعنيه من الأمر الا أن يكسب شيئا وان يهرق دماء بعض المسلمين على ما صوره له القسم الذى أقسمه . ورحل الكونت فجأة تاركا يافا الى فرنسا ، فتولى قيادة الصليبيين بدله ريتشارد أمير كورنوول الذى وصل الى الشرق فى أعقاب رحيل ثيبو ووقع ريتشارد المعاهدة التى فرضها عليه المصريون ثم انطلق يعيد تحصين عسقلان .. ولكنه بعد ان أتم هـذا عاد هو الآخر الى أوروبا وخلف الولايات اللاتينية فى سورية مقسمة بين المسلمين فى جانبين متضادين . .

وقد أفضى سقوط دعاة الملكية فى صور الذين عضدوا الحلف مع المصريين فى عام ١٢٤٣ — مضافا الى هذا — النصر الذى كتبه الدمشقيون وحلفاؤهم على المصريين،

الى تقوية الفرنج أنصار سلطان دمشق وحلفائه . بيد ان المصريين لم يفتأوا ان حالفوا أمير الكرك وبدأت الحرب ثانية عند الحدود المشتركة بين الدولتين . ولكن مالبث أن باع هذا الأمير حلفاءه منضما للدمشقيين فصار كل المسيحيين بذلك فى جانب أهل دمشق ولم يجد المصريون بدا من أن يستعينوا بآل خوارزم . وكنتيجة لهذا هزم جيش الدمشقيين ومن معهم من المسيحيين قرب غزة ، وسقطت بيت المقدس فى عام ١٢٤٤ م فى قبضة السلاجقة بعد أن ظلت منذ عام ١٢٢٩ فى يد المسيحيين ، واندفع المصريون صوب دمشق فدخلوها فى عام ١٢٤٦ م وبذا تلاشى التنافس بين آل أيوب — هذا التنافس الذى هدد من استقرار سيطرة فرع واحد فوق سورية وفى ذلك الوقت هبط المغول من هضاب آسيا الجرداء مغيرين على شمال سورية ، واجبروا أمير انطاكية على أن يدفع لهم الجزية .

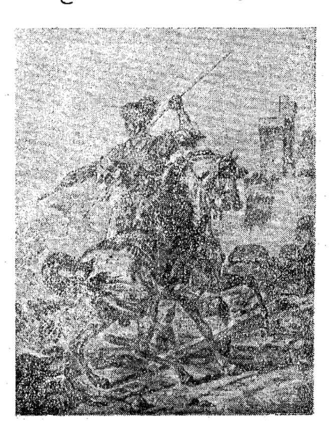
على أنه قبل ان نعرض بالنقاش للحلف بين المصريين والمغول ، هذا الحلف الذى ساد الموقف فى سورية لربع القرن الذى تلا هذا ، يتعين ان نتوقف قليلا لنرقب الحملة الوحيدة فى ذلك القرن التى يتسنى القول بأنها حرب دينية . ففى عام ١٢٤٤ م وفى غمرة اصابة بالمرض نهض لويس الملك المتدين فى فرنسا ، يدعو الى حرب صليبية جديدة وأعد جيشا ليقوده فى الشرق لاستعادة الأراضى المقدسة للمسيحيين وفى هذه الحملة لا تتوافر أية دوافع سياسية بل كان الدين وحده هو المحرك للأمر كله ، وكان لويس مدفوعا بتقواه ورغبته فى الوصول الى الهيكل المقدس ولم يكن يهمه أن يفقد ثروته وملكه وحياته فى سبيل هذا الهدف . وكان كل من الفرسان الذين وقفوا الى جانب الملك لويس يريد أن يذهب الى الجحيم فى أعقاب قائده وان كان لا يريد أن يذهب وحده ! !

وقصة لويس الصليبى يتيسر أن نطالعها فى افاضة . . . فى المرجع الذى يبسطه جوانفيل . بل لانغالى اذا قررنا أنه لا يوجد مرجع أقوى مما وضعه جوانفيل — وفى هذه القصة نلتقى تفصيليا مراحل غزو دمياط والسير على شاطىء النيل . . . ومعركة المنصورة ثم هزيمة لويس واسره . ونقف فى هذا الحديث بازاء ناحية من خلق الشرقيين فى معاملة الملوك الذين يهزمون ويؤسرون ، فقد أكرم المصريون

لويس بالرغم مما أبدوه من مظاهر سرورهم بالنصر الذى أحرزوه .

وقضى لويس بعد اطلاق سراحه أربعة أعوام فى سورية وبلا نتيجة . فلم يبذل جهدا ولم يبرم أمراً .. فقد أمست الحملات الصليبية مسألة فاشلة . ثم لم تأت حملة لويس التى وجهها ضـــد تونس فى عام ١٢٨٠ م بنتيجة ما ، ومات لويس بمعسكر قواته فى تونس . ومثل هذه الوفاة قد أزالت من الوجود قوة كان من المستطاع أن يكون لها تأثيرها فى معاونة صليبى الشرق وبذا ترك هؤلاء لما تأتيهم به الأقدار . ولكنه مع هذا كله كان آخر الصليبيين الحقيقيين الذين علوا فى سجلات تاريخهم .

ومما لا يستطاع نكرانه أن الثورة التى قامت بمصر فى عام ١٢٥٠ م قد تكون اكبر أهمية من حملة الملك القديس . فعندما مات السلطان أفضت الثورة التى بدأت فى القصر الملكى إلى أن تربع على العرش رأس الحكام المماليك فكان الحاكم الأول لاسرة تعاقب بنوها على حكم مصر فاوصلوها إلى ذروة لم تبلغها من المجد والقوة فى العصور الوسطى . بيد أن المماليك ما كادوا يستهلون تأسيس دولتهم فى سورية حتى لاح فى الافق ، الغزو المغولى .. وعلى رأسه هولاكو الذى اكتسح بلاد الشرق الأوسط .



المغول بعد الصليبين

وقد بدأ المغول من قلب آسيا فى عام ١٢٥٨ — م — حربا برقية كانت هى. أسس «البليتزكريج» أو بمعنى آخر كانت هذه العملية الاكتساحية هى الصورة الاصلية التى نسج الألمـــان على غرارهـا فى عملياتهم فى الغرب . وقد اكتسح المغول ايران. والعراق بسرعة ، مدمرين بغداد عاصمة الخلافة مقتلين الأهلين ، وحتى اولئك الاشداء من غلاة طائفة الاسماعيلية الذين يتحصنون بالقمم الجبلية العالية لم يلبثوا أن دمرهم المغول واطاحوا بهم إلى السهل ، وكانت حلب ودمشق بدورهما فريسة سهلة الاقتناص .

واستثمر المغول إلى اقصى مدى « حرب الاعصاب » فنشروا الذعر والخوف. منهم فى كل مكان . وحيثما اتجهت قواتهم كانت تسبقها الأقاصيص عن طغيانهم وقساوتهم ومذابحهم، ثم يردفون هذا الغزو بارتكاب الفظائع التى أثارت مشاعر العالم المتمدين كله . وبدا وكأن هؤلاء الناس قوة لا تقهر .

وقـــد طرب أهل أوروبا المسيحية لانتصارات المغول ، فهؤلاء المغول من أصدقاء المسيحيين ، ثم إن فيهم بعض النصارى .. ولهولاكو نفسة زوجة مسيحية فضلا عن أن القائد الذى ولى الأمر فى سورية عندما استدعى هولاكو إلى سيبيريا كان مسيحيا ، كل هذا قد جعل البابوات وحكام غرب أوروبا ينظرون إلى المغول وكأنهم حلفاؤهم فى قتال المسلمين وغض هؤلاء ابصارهم عن الفظائع التى ترتكب ... وماذا يعنيهم منها والمغول يسفكون دم خصومهم من المسلمين .

والراهن أن فكرة تكوين حلف من الأوربيين والمغول لتدمير الولايات الاسلامية كانت موضع تفكير البابوات فى عصور متتالية .

وقد تبادل المغول وحكام غرب أوروبا البعوث ، وأهم هذه البعوث بعثة جون.

كاريينى وبعثة وليام روبريكويه . وكان فردريك الثانى وحده بين حكام الغرب الذى عرف التهديد الحقيقى الذى يكمن فى اعطاف الغزو المغولى وألح فى القيام بحرب صليبية ضد المغول انفسهم ولكن فردريك كان هو نفسه موضع ريبة فى نظر البابا . اليس هو على عهد مع المسلمين فكيف يتسنى اذن الثقة بما يزعمه من التوجيه الصحيح للغزو المغولى ، ؟!

وإن اعتبارات البابوات لهجوم المغول على أنه حرب صليبية ضد المسلمين كان هو منشأ اضطراب السياسة للبابوات فى أخريات القرن الثالث عشر ... هذا الاضطراب الذى اكمل فقدان المسيحيين لمملكة بيت المقدس . ويبدو أن الكثيرين من المؤرخين المحدثين قد اقترفوا ذات الخطأ ، فان المؤرخ جروسيه مثلا يبكى بصوت عال لفشل فرنج سورية فى معاونة المغول خلال غزوهم للشرق الأدنى ، والواقع الذى لا مرية فيه هو أن مابذله هؤلاء الفرنج من معاونة المغول برغم قلتها كانت هى التى سببت تدمير الولايات اللاتينية فى سوريا فيمابعد . وكانت سياسةالتعاون مع المغول سياسة جافاها الصواب أصلا لان السبيل الوحيد للابقاء على الولايات اللاتينية كان هو الاحتفاظ بصلات الود والصداقة مع المصريين وقد تبدو لنا هذه الحقيقة واضحة عندما ندرك أنه مع كون السياسة المصرية كانت تقوم على أساس تدمير الدول اللاتينية فان المدن التى بقيت على عهدها للمصرين قد تركت قائمة لوقت طويل عقب تدمير تلك التى عاونت المغول . فضلا عن أن المماليك لم يهاجموا اطلاقا المدن المسيحية التى كانت تتبع أسس ونصوص العهد الذى كان بينها وبين المسلمين .

وتفرق الافرنج فى إتجاههم بالنسبة للمغول كما كانوا يختلفون فى كل شىء آخر . وقد صارت ولايات طرابلس وانطاكية والساحل الجنوبى للأناضول تتبع الغزاة المغول ، يدفع امراؤها الجزية ويقدمون المعاونة العسكرية ، بينما بقى أمراء الولايات الجنوبية يتأرجحون بين النفع الذى يتسنى أن يجيئهم من معاونتهم للمغول وبين عهدهم للمصريين . العهد الذى تربطهم به المعاهدات القائمة بينهم ، ومما يذكران جوليان أمير صيدا وجون ايبلين أمير بيروت وجون أمير جبيل وأهالى عكا كانوا فى جانب المصريين .

وكانت المعركة الاولى الحاسمة بين المغول والمماليك هى معركة عين جالوت (٣ سبتمبر ١٢٦٠) وقد كان إلى جانب المغول قوات من أنطاكية وارمينيا . وظل أهل باقى الولايات اللاتينية فى موقفهم السلبى ... وكانت هزيمة المغول تامة فقتل قائدهم النسطورى وبعثر جيشهم واندفع المماليك المنتصرون لاستعـــادة دمشق وحلب ، وتعرضت الولايات المسيحية الشمالية لحملة تأديبية لمعاقبة اولئك الحمقى الذين عاونوا خصوم السلطان . بيد أن المغول بقوا يحتلون بلاد النهرين والاقاليم الشمالية ينتظرون الفرصة السانحة لاستعادة ما فقدوا .

وكان السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى قد تولى العرش عقب ان اغتيل سلفه قطز وكانت غزوات بيبرس العظيم والتى تمت كلها على حساب الفرنج قـــد سببت ان جعلت منه بطلا من أبطال المسلمين . ولكن الواقع ان الذى جعل بيبرس يستحق أن يخلد فى سجل التاريخ ليس هذا ، بل هو أنه كان فى الحقيقة المؤسس لمصر العظيمة على عهد المماليك ، فهو بالرغم من تقواه لم يك للدين دافع فى أعماله أكثر مما كان بالنسبة لمن سبقوه من السلاطين والأمراء ، وغزوه للولايات اللاتينية هو فى الواقع خطوة اضطرارية لايدفعه اليها له الا رغبته فى أن يوسع من رقعة السلطنة المصرية

واما موضوع هـذا الغزو فلم يك نوعا من الجهاد يبدو هذا بجلاء من رغبته فى الاحتفاظ بصداقة الملوك المسيحيين أمثال تشارلس ملك صقلية وجيمس أمير الأرجون والفونسو ملك قسطلة وميشيل بلايوجوس ملك القسطنطينية فان كل هؤلاء قد كانوا منه فى موقف الحلفاء السياسيين أو العملاء التجاريين ، وكان بيبرس كصلاح الدين قد جمع بين حروبه ضد اللاتينيين وغزوه للدول الاسلامية التى تقف منه موقف الخصومة والعداء كالأمراء الأيوبيين فى سورية ورجال الاسماعيلية فى لبنان والبربر فى شمال أفريقيا وملوك النوبة فى الجنوب . وكانت عظمة مصر تشغل الجزء الأهم من سياسته ، ولهذا جاء إلى القاهرة فى عام ١٢٦١ بالخليفة العباسى الذى كان المغول قد دمروا حاضرة ملكه فى بغداد حيث وجدوا فيه آلة نافعة يحمى بها سلطانه فى كفاحه ضد الشيعة .

وقد حدثت أهم غزوات بيبرس لسورية اللاتينية فى المدة بين ١٢٥٦ و ١٢٦٨ وقد تيسر له الاستيلاء على قيصرية وارسوف ويافا وغيرهما من القـــلاع القوية ثم تركت عرضة للسلب والنهب .

وقد كان من أظهر أسباب نجاح بيبرس هو أنه — على نقيض صلاح الدين قد حارب خصومه بجنود محترفين دون أن يفكر بتاتا فى امتيازات أو حقوق الجيش العامل الأساسى للدولة ، وكان بيبرس هذا يستطيع أن يبقى جنوده فى ميدان القتال لأمد أطول مما كان يستطيع صلاح الدين بجنوده الذين جندهم من رعاياه وأعدهم للحرب ، وتبعاً لهذا كان بيبرس فى موقف يهيء له أن يمد حملاته إلى أغراض أبعد .

ووقع آخر هجوم أوروبى لصالح مملكة بيت المقدس فى الفترة من عام ١٢٧٠ إلى ١٢٨٢ وقد اضطلع بقيادة هذه القوات للشرق الـــبرنس إدوارد (فيما بعد إدوارد الأول ملك انجلترا) بيد أن هذه القوات لم تصل إلى شيء وكان جل نصيبها من الصراع أنها شهدت سقوط المواقع اللاتينية الحصينة .

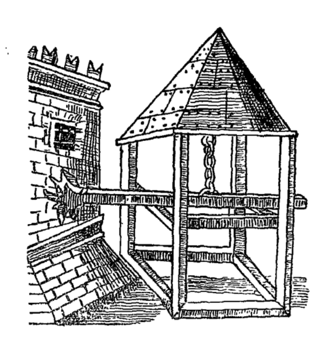
وحتى فى هذه السنوات الحرجة الأخيرة لم ينفض الفرنج أيديهم من الحروب الأهلية فأن تشارلس أمير أنجو الذى ابتاع لقب ملك بيت المقدس من ماريا أميرة أنطاكية استولى على عكا فى سنة ١٢٧٧م بالاتفاق مع أنصار الهيكل المقدس (الداوية) معارضا فى هذا هوج أمير قبرص الذى كان المجلس الأعلى قد منحه إمارة عكا ، وقد اتبع تشارلس سياسة فردريك الثانى فصادق المصريين وعاون واليه فى عكا جيوش السلطان . بل وبقى على صلات حسنة معه حتى إن لويس بيلتشين واليه فى عكا قد وقع من السلطان قلاوون عهدا استمر إلى عام ١٢٨٣ م .

وقد سببت وفاة بيبرس فى سنة ١٢٧٧ م أن منحت ولايات الفرنج فى سورية نفحة من الحياة والانتعاش ، ذلك لأن قلاوون الذى اعتلى عرش مصر فى عام ١٢٧٩ قد استهل الحرب بعنف مترسما خطى سلفه الأول الذى ترك الأمر فى حاجة إلى من يستكمله ، وكان أول نصر عام حصل عليه هو انتصاره فى عام ١٢٨٠ م على الجيش الذى بعث به المغول إلى سورية للغزو فكان نصيبه أن هزمه المصريون فى حمص

وأسرع امراء الولايات اللاتينية فى الجنوب إلى عقد المعاهدات مع السلطان ولكنهم كانوا قد تأخروا حقاً ، فان قلاوون لم يك ليستطيع أن يجازف ثانية بالابقاء على الدول المسيحية التى يمكن أن تتعاون مع المغول لو تقدموا شرقا .

وكان أهم غزو حدث فى عهده هو الاستيلاء على مدينة طرابلس التى كان أهلها يخوضون غمار حرب أهلية للخلاف على عرش بوهيموند الثالث . وقد استعان أحد الجانبين بالسلطان بينما بعث الجانب الآخر يطلب معاونة أهل جنوا . وجاء قلاوون ولم يبق فى طرابلس شيء إلا القليل مما يجب أن يعمل لاستكمال سحق الفرنج وطردهم من سورية وعكا وبيروت وصيدا وبعض القلاع المنعزلة المبعثرة على طول البلاد .

ووري قلاوون فى التراب فى عام ١٢٩٠ م قبل أن يكمل القضاء على الولايات اللاتينية ولكن ما تبقى عقب وفاته أتمه خليفته الأشرف خليل الذى احتل عكا فى مايو عام ١٢٩١ ، وكان السبب المباشر للهجوم على المدينة هو هجوم المسيحيين الذين قدموا حديثا إلى عكا على أراضى المسلمين . وبذلك كان أهل عكا قد نقضوا العهد فقدموا للسلطان فرصة يعتذر بها فى مهاجمته المدينة وتدميرها وتبع سقوط عكا أن سلمت كل المدن اللاتينية وانتهت ممالك الصليبيين وتم توحيد سوريا بأسرها تحت حكم سلطان مصر .





على أن سقوط عكا لم يك له تأثير رجعي في الغرب . نعم علا بكاء البابا بيد أن فرداً واحداً لم يلب النداء ولم يستطع البابا أن يجمع أية قوة جديدة باسم الصليب تحاول إحياء المملكة التي هدمت . وقد انصرف الدعاة يدعون إلى إعداد العدة لقوة الصليبيين من جديد ، ولكن شيئا من هذا لم يتم ولم تنجح الدعوة .

كما وأن تهـــدم مملكة الصليبيين في الشرق لم يضع حدا للحروب بين المسلمين والمسيحيين فان ملوك قبرص والذين كانوا هم الورثة الوحيدين لمملكة بيت المقدس قد اشتركوا في عدة حروب ضد المصريين في طليعتها غزو بيير لوز نجان الأول ثغر الإسكندرية في عام ١٣٦٥ م وقد وسمت هذه الحروب بانها حرب صليبية الا أن هذه الحروب في الواقع كانت أقرب صورة إلى الاغارات للكسب من أن تكون حروبا دينية وعلى ذات النمط كان غزو السلطان برسباى لقبرص في القرن الخامس عشر لا يرتد إلى نعرة دينية بل كان منشأه ايواء أهـــل قبرص للقرصان الذين يغيرون على السفن التجارية المصرية .

وكانت في نفس الصورة أيضا تلك الحملات التي أرسلت لا يقاف تقدم الاتراك العثمانيين فقد وسمت في بعض الاوقات وكأنها من الحروب الصليبية ولكنها لم تك في غالبيتها كذلك — وتوسم أكثر بالمعارك السياسية .

وقد يستحق صليبيو نيقوبوليس في عام ١٣٩٦ هـذا اللقب إلى حد ما نظرا لان كفاحهم كان مزيجا من البطولة والمخاطرة والتعصب الديني مع بعض التوجيه السياسي الدنيوى .

والواقع أن هـذه الحروب ــ فيما عدا حملة نيقوبوليس ــ قد استرعت انتباه القليلين الذين لم يقوموا أطلاقا بدور جدى فى الأمر ، ولهذا كان من الصعب أن يرقب المؤرخ المحقق فيها أكثر من أنها حروب سياسية واقتصادية (١)

وظل الدين يستغل فى كل حـــرب يقف فيها فى الجانبين المتضادين ، أناس من عقائد مختلفة متباينة ، فكل حرب ضد الأتراك العثمانيين قيل عنها أنها حرب صليبية وعلى ذات القياس فـكل حرب يقاتل فيها المسلمون المسيحيين قالوا عنها أنهـا جهاد ولـكن هذه التسمية من الجانبين لم يقصد بها إلا أن يجعل من الدين عذر للحرب ثم لإثارة حمية الجماهير وإمدادهم لدولاب الحرب.

والصعوبة العظمى لمناقشة هذه المسائل تـكمن فى طبيعة خلق المؤرخين من المسلمين والمسيحيين ، كانوا يقدرون العوامل الدينية فى كل حرب ويتعقبونها لاستغلالها ، كان هؤلاء فى الواقع يستغلون ما عرف عن القادة من إيمان ومن دفاع عن المعتقد الذى يؤمنون به متناسين احتياجات الأهلين للحرب التى يخوضون غمارها للدفاع عن حقوق اقتصادية أو عمرانية .

ولا مراء أيضا فى أن المستندات الرسمية نفسها التى استخدمت لإثارة الناس للحرب لا يتسنى أن تتعارض مع ما سجله الرواة بل أن هذه المستندات الرسمية مثلها مثل المؤرخين فى أنها قدمت الأغراض الأساسية للحرب .

ولقد يكون جميلا أن نـكرر هنا أنه فى طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ــ عصر الصليبيين والجهاد الاسلامى ــ لعب الدين دورا هاما ، هو نفس الدور الذى تلعبه اليوم ــ السياسة ــ ومع ذلك فقد كان ستاراً لإخفاء الأهداف السياسية والاستعمارية .

---

(١) جون لامونت : كتاب تراث العرب ، نشره الأستاذ نبيه أمين فارس عام ١٩٤٤ .

الفصل الثانى



السلطان الصالح نجم الدين أيوب ــ الملك لويس ــ ممهدات معركة المنصورة ــ حصار دمياط ــ خطابان متبادلان ــ حملة عسكرية بدون خطة ــ موت السلطان ــ معركة المنصورة ــ المعارك الأولى ــ سلاح جديد فى المعركة ــ اقتحام المنصورة ــ هجوم مضاد بقيادة فارس الدين أقطاى ــ إعادة التنظيم وانتشار المرض ــ عمليات الأسطول النهرى ــ بين المجاعة والتسليم والانسحاب ــ الملك الأسير ــ نهاية توران شاه ــ مفاوضات التسليم ــ فلول الحملة ــ معاهدة الصلح ــ سفر الملك ومغادرة دمياط ــ أفول الروح الصليبية



مصر أثناء الحرب

السلطان الصالح نجم الدين أيوب

ارتقى السلطان الصالح نجم الدين عرش مصر سنة ١٢٣٩ — وهو حفيد صلاح الدين — خلفا لأخيه الملك العادل الذى خلع بسبب تبذيره ومفاسده ، بعد ما أرهق الناس بأحواله السيئة ، فخلع وسجن ونودى بأخيه الصالح نجم الدين سلطانا على مصر وسوريا .

وكان الصالح نجم الدين رجلا شهما وشجاعا ، غير ميال إلى مجالس اللهو أو أسباب المسرات ، رزينا وقورا ، منهمكا كل وقته فى شئون الدولة ، فكان يحتم على وزرائه أن يحيطوه علما بكل شىء ، ولم يجسر واحد منهم على التصرف فى صغيرة أو كبيرة دون أن تلقى أوامره ، ولكن هذه الصفات الحميدة التى اتصف بها كانت تشوبها قسوته وغطرسته التى لا تحتمل ، وكان متحفظا صموتا ، وكان وزراؤه ورجال حاشيته وخدمه يرتجفون فى حضرته لعبوسه وشدته فى عقاب من يخطىء أو من تحوم حوله الشبهات .

وحدث أن اضطر الصالح نجم الدين فى نهاية حكمه إلى السفر إلى سورية لاخضاع بعض الثورات فدخل دمشق . وهناك وصلته الأنباء الأولى عن الحملة الفرنسية المتأهبة للإبحار إلى مصر . ويقول المؤرخ المقريزى إن أنباء هذه الاستعدادات

الكبيرة التي قام بها ملك فرنسا لغزو وادي النيل قد بلغت الصالح بواسطة فردريك الثاني أمبراطور ألمانيا وملك صقلية الذي أوفد إليه رسولا متنكرا في زي التجار . فلما وصل الرسول إلى دمشق وجد السلطان على فراش المرض ، فقد أصيب لسوء الحظ يصاب في هذا الظرف بمرض خطير .

وعلى كل حال فقد قرر الصالح العودة إلى مصر في الحال ، لكي يعد مملكته للدفاع عن كيانها ضد الخطر المحدق بها . ولما لم يكن في طاقته أن يمتطي صهوة جواده فقد حملوه في محفة . ووصل أشموم — بالقرب من المنصورة — في مايو عام ١٢٤٩ ودلت كل الظروف على أن الصليبيين كانوا يتجهون إلى دمياط . ولم تكن هذه أول مرة يهاجمون فيها مصر ، فقبل ذلك بإحدى وثلاثين سنة نزلوا في دمياط ودخلوها بعد حصار طويل وانقضوا على أهلها البواسل يذبحون كل من يصادفونه حيا بين أرجائها ومع ذلك فإن الدفاع المجيد الذي قاتلت به دمياط أولئك المغيرين عليها ، قد أرهقهم وكبدهم خسائر فادحة مما اضطرهم آخر الأمر إلى العودة الى بلادهم منهزمين — وشرع حالا في تقوية وسائل الدفاع عن دمياط ، ووضع في مخازنها كميات كبيرة من المؤن والسلاح ، وحشد فيها حامية قوية يثق ببسالتها وإخلاصها ، وأرسل جيشا تحت إمرة فخر الدين إلى الجانب المطل على النيل من دمياط ليمنع نزول الصليبيين على الشاطىء في حين اتخذ السلطان لنفسه ولقواته موقعا حصينا ، ومن هناك تأهب لقتال الغزاة

الملك لويس

كانت فرنسا في عام ١٢٤٩ لا تزال دولة اقطاعية كبيرة ، ولم يكن للملك فيها ذلك الخطر الذي يسيطر على كل شأن من شئونها ، حتى لقد كان كبير رجال حاشيته أوفر منه ثروة وأقوى نفوذا . أما حالة الشعب فكانت أعظم يسرا ورخاء من حالة الكثرة الغالبة من الأمم المجاورة لفرنسا ، ونبلاؤها كانوا ذوي حيوية وأبناء حرب ، وقد أبدوا في حروب الصليبيين المتعددة إخلاصهم وولاءهم للرسالة التي كلفوا أداءها ، وأظهروا جرأة وشجاعة في نضالهم ضد المسلمين .

أما شخصية الملك الشاب لويس التاسع ، فيمكن تصورها من صفحات الكتاب الذى دبجه عنه المؤرخ دى جوانفيل (1) شخصية ذلك الملك التقى النقى ، الصالح الصادق ، الموصوف بالبسالة والاقدام ، وبالرجولة والعزة ، والمحفوف بمخايل النبل وشرف المحتد ، ذلك الملك العفيف الثابت فى كلمته وعقيدته ، والأمين على عهده ، ملك مرهف الاحساس ، سريع الثورة قريب التأثر ، ولكن طبيعة الحلم وشيكا ما تبادره ، فتشيع فى نفسه السماحة والرحمة وتبدو عليه بشاشة وصفاء .

ومن الطريف أن دى جوانفيل ، الذى اطنب فى امتداح فضائل ملكه وطيب خلاله ، لم يعطنا الا اشارات قليلة خاطفة عن جمال مظهره ، وحسن سماته واليك بعضها فى سياق وصفه المعركة الأولى أمام المنصورة . كتب دى جوانفيل :

شاهدت الملك وقد وصل مع حاشيته وكانت الأرض تهتز بأصوات النفير وضربات الطبول ، فسار حتى بلغ مرتفعا من الرمال ، وهناك وقف بين أركان حربه ، يشاهد عن كثب سير القتال ، فاقسم انني ما رأيت قط رجلا ابهى جمالا منه تحت درقته وقامته الفارعة المهيبة تضفى على سيائه النبل والسلطان وخوذته المذهبة تغطى رأسه فى رشاقة وجمال . . . وصدقنى اذ أقول أبدا ما اتى قائد بمثل ما أتاه الملك فى تلك المعركة من ضروب البسالة والاقدام .

بل لقد قيل أنه لولا نضاله وجرأته حينذاك لا نهزم الجيش بأجمعه . ولكنى اعتقد أن بسالته الطبيعية قد ضاعفتها فى ذلك اليوم قوة الله ، فقد كان يلقى بنفسه فى كل معمعة ، ويتصدى لكل ضارب ، ويسارع إلى نجدة كل رجل من رجاله يراه فى ضيق . والسيف فى يده سريع بتار . وهو ينازل به ويناضل ويكر ويفر ويصمد وينتصر ، فياله من منظر يأسر اللب .

1 — ولد جان دى جوانفيل حوالى سنة ١٢١٤ وصار فيما بعد مستشارا للملك لويس التاسع وصحبه على رأس جيشه فى الحملة الصليبية السابعة وقد أرخ جوانفيل ، هذه الحملة بإسهاب ودقة ولم يقتصر فى مذكراته على التحدث عن سيرة الملك لكنه ذكر فيها أخبار المعارك الصليبية .

ويصف دى جوانفيل أخلاق الملك وميوله وصفا دقيقا فيقول « انه أحب الصدق بدرجة عظيمة ، فما قال الكذب قط ، ولاحنث فى عهد قطعة على نفسة بازائهم وكان معتدلا جدا فى طعامه ، وما سمعته مره واحدة فى حياتى ، يبدى تلذذه من مطعم أو مشرب ، شأن كثير من الأثرياء والمترفين ، ولكنه يجلس ويتناول ما يقدم اليه فى تؤدة وهدوء. وكان فى كلامه عف اللسان ، فما رأيته قط فى يوم من الأيام صدرت منه كلمة معيبة ، ولا لعن الشيطان فى كلامة كما أصبح الناس عادة يفعلون ... تلك المادة التى اعتقد أنها لا ترضى الله ...

« ولقد لازمته زهاء اثنتين وعشرين سنة ، فما سمعته أبدا طيلة هذا الزمان وهو فى أى لون من ألوان الانفعالات ـــ شتم أو حلف بالله أو السيدة العذراء أو أى أحد من القديسين ولكنه عند ما يريد أن يؤكد أمرا ، فهو يقول (حقا أنه كذلك) أو (بالحق ليس هو كذلك) .

وكان من المستحيل أن ينكر ربه أو يجحد به من أجل أى أعتبار دنيوى مهما بلغ ، فانه حين أراد سلطان مصر وأمراؤها أن يجعلوا نكرانه لعقيدته شرطا للصلح رفض كل الرفض ، ولما علم أن هذا هو قرار المسلمين الأخـــين ، أجاب قائلا أنه يرحب بالموت على أن ينكر عقيدته .

جاهد الملك لويس كثـــيراً لتثبيت دعائم السلام والوفاق بين رعاياه ، وعلى الأخص بين الأمراء ورجال البلاط حتى لقد كان مستشاروه يتوجهون إليه أحيانا باللوم على الآلام العظيمة التى يتجشمها لفض منازعات الأجانب ، وكانوا يقولون له أنه يخطىء بتصرفه هذا إذ يحول دون اختصاصهم . واحتدام الحرب فيما بينهم ، الأمر الذى تعمل على إيجاده سياسة الحكومات لتأكد أسباب السلم بين رعاياه ، فكان الملك يجيبهم بأن مشورتهم خاطئة وكانت حجته فى ذلك رائعة ، ولكنها لم تكن من النوع الذى قد يقتنع به الساسة المحدثون .

ولم يذكر المؤرخ جونفيل شيئا عن مؤتمر ليون الذى أعلنت فيه الحرب الصليبية ولا عن الاستعدادات التى تمت فى فرنسا للقيام بالحملة ، وانمـــا ذكر فقط أن الملك

لويس التاسع قد أبحر من فرنسا فى ٢٥ أغطسطس ١٢٤٨ م وان أسطولا ضخما قد أعد لنقل الجنود تحرسه قوة عظيمة من سفن القتال . أما من اين استؤجرت هـــذه السفن وهل هى من جمهورية بيزا أو جنوا أو البندقية ، أو انها أعدت خصيصا فى احدى موانى شمال فرنسا ، فهذا ما لم يبينه دى جوانفيل .



صورة تخيلها الرسام لشجر الدر

ممهدات معركة المنصورة

قبل إيضاح تفصيلات هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ الشرق العربى، عامة وبخاصة تاريخ مصر ، سنتناول الكلام عن ممهداتها ، أى تلك الأحداث التى سبقتها سواء أكانت فى البلدان الغربية أم فى الشرق العربى .

٢٨ يونيو — ١٧ يوليو ١٢٤٥

اجتمع المؤتمر الكنسى فى مدينة ليون بفرنسا برئاسة البابا أنوسنت الرابع ، وقد تناقش المجتمعون فى مسألة فلسطين بعد فقد بيت المقدس وغيرها ، وكان من آثار المؤتمر إثارة الرأى العام الفرنسى فى بقى بلدان أوربا برعاية الملك لويس التاسع الفرنسى الذى اخذ على عاتقه النهوض بالحملة الصليبية السابعة .

لذلك عقد مجلسا كبيرا حضره القاصد الرسولى وكبار رجال المملكة ورجال الدين وخطب الملك فى الحاضرين داعيا إياهم لحمل الصليب ، وبادر فقيد اسمه فى سجل الحرب المقدسة واقتدى به أخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا ، وشارل كونته أنجو ، والفونس كونت بواتييه وانضم إليهم جوانفيل الذى صار فيما بعد مؤرخ الحملة ومن أشهر فرسانها ، وكذلك زوجة الملك — مرجريت دى بروفانس — وفى خلال ثلاث سنوات وفى حوالى يونيه ١٢٤٨ كان قد تم تدبير معدات الحملة واستؤجرت السفن واستكملت الذخيرة والمؤن واختيرت جـزيرة قبرص لكى تكون قاعدة الحملة الصليبية للإطباق على مصر .

١٢ يونيو ١٢٤٨

غادر الملك لويس باريس قاصداً ميناء أجمورت [1] وبصحبته جانب كبير من الصليبيين من بينهم زوجته وأخواه ، أما شقيقه كونت بواتيه فقد بقى فى فرنسا بعض الوقت لجمع الامداد على أن يلحق بالجيش فيما بعد .

٢٥ اغسطس ١٢٤٨

ابحر الاسطول من اجمورت يتألف من سفن لنقل الجنود وأخرى من سفن القتال .

١٧ سبتمبر ١٢٤٨

رسا الأسطول فى ميناء اللمسون جنوبى قبرص كما أبحر بعض الصليبيين ومنهم جوانفيل من مارسيليا .

١٧ سبتمبر ١٢٤٨ — مايو ١٢٤٩ .

تأخر الأسطول فى قبرص بلا مبرر وفى خلال تلك الأشهر نفد جزء كبير من المؤن والنبيذ ولم يستطع الأسطول التحرك إلا بعد تنظيم عتاده من جديد ، كما نفدت أموال الحملة وتسربت أخبار الحشد إلى مصر مما أتاح الفرصة للاستعداد وتحصين دمياط ، وهكذا فقد الصليبيون مزية المفاجأة . وكان بوسعهم إدراك محصول البلاد محصوداً ومحشودا فى الأجران مما يعاونهم على تموين جنودهم وحيوانهم .

٣ صفر ٦٤٧ هـ — ١٨ مايو ١٢٤٩ م

وصل السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق إلى مصر ، ونزل فى أشموم طناح وكان العمل مستمرا فى تحصين دمياط .

٢٠ — ٢٢ مايو ١٢٤٩

أقلعت الحملة على دفعات من ميناء اللمسون ميممة شطر مصر فى أسطول كبير وقد استمر إقلاع السفن إلى يوم أول يونيو .

---

(١) Aigues Mortes

حصار دمياط

٢٠ صفر ٦٤٧ هـ — ٤ يونيو ١٢٤٩

وصل الأسطول إلى الفرع الشرقي للنيل ورسا بعض سفنه بالبر الغربي تجاه دمياط (بحيرة دمياط — أو جزيرتها) لأن دمياط نفسها تقع على الجانب الأيمن للفرع الشرقي للنيل عند اتصاله ببحر الروم . ولم يكن مع الملك سوى ثلث الحملة — أما الباقي فقد جرفته الرياح العاصفة معها ، فاتجه إلى الشمال الشرقي ، وتوغل في البحر حتى انه لم يتمكن أن يدرك الملك وينضم إلى قواته إلا بعد انقضاء وقت طويل . وقد نصح المستشارون — الملك — بأن ينتظر هذا الجانب المتخلف من الأسطول قبل النزول إلى البلاد المصرية ولكنه رفض كلامهم قائلا : « إن التردد ربما شجع العدو على مهاجمته بحراً » وفي اليوم التالي (٥ يونيو) استقر الرأي على النزول إلى البر الغربي لدمياط .

كانت قوات المصريين بقيادة الأمير فخر الدين مرابطة على الشاطىء ومتأهبة للقتال وإلى جانبها عدد من السفن المسلحة لمنع الفرنج من النزول .

٢١ — ٢٢ صفر — ٥ — ٦ يونيو ١٢٤٩

شرع الصليبيون في النزول إلى البر ، وانسحب فجأة القائد فخر الدين من دمياط بالرغم من منعتها وذلك طمعا في الاستحواذ على الحكم ، اعتقاداً منه أن مليكه قد وافته المنية ، بالرغم من مناوشات وقعت بين المصريين والفرنج ، استشهد فيها من القادة الأمير نجم الدين والأمير صارم الدين . ثم هرب أهل دمياط ولحقوا بالجند في

أشموم طناح . واحتل الفرنج دمياط بعد تحققهم من خلوها من العسكر والسكان واستولوا عليها دون قتال .

جزعت القاهرة عند وصول النبأ وهلع السلطان فى أشموم طناح . وقرر السلطان الانسحاب من أشموم طناح إلى المنصورة لميزة موقعها ، فان النيل يحميها غربا وبحر أشموم يفصل بينها وبين الفرنج فى الشمال . وفى ٨ يونيو عام ١٢٤٩ كان السلطان فى مخيمه بالمنصورة ، بينما كان الصليبيون يدعمون مراكزهم فى دمياط وفيما حولها ، ثم توقفت الأعمال الحربية زهاء خمسة أشهر ونصف .

هكذا رأينا الفرنسيين لم يجدوا أية مشقة فى النزول إلى الماء الضحل الذى يقارب الشاطىء ، فنزل الى البر ألوف الفرسان فى دروعهم الثقيلة حاملين سيوفهم المستقيمة ومعتطين ظهور جيادهم ويتبعهم حملة القسى ، كل هؤلاء يملأون رحاب الشاطىء على حافة البحر وعلى رأسهم ملكهم والعلم الملكى مرفوع أمامهم ، واستمرت القوات فى نزولها من الجانب الغربى من فرع دمياط ، فى حين أن دمياط كانت على الشاطىء الشرقى للنهر ، ومن ثم اضطروا للعودة الى سفنهم مرة أخرى ، لأنه لم يكن فى مقدورهم أن يعبروا النيل تحت رحمة الجيش المصرى المرابط فى دمياط .

خطابان متبادلان

قلنا ان السلطان الصالح نجم الدين أيوب وصل من دمشق — وهو مريض أثر ما بلغه من حملة الفرنج . فنزل بأشموم طناح فى شهر المحرم ٦٤٧هـ — (١٢٤٩م) وجمع فى دمياط من الأقوات والسلاح شيئا كثيرا ، وبعث الى الأمير حسام الدين بن ابى على نائبه بالقاهرة لكى يجهز له الشوانى من دار صناعة مصر . فشرع الأخير فى تجهيزها وسيرها شيئا بعد شىء ، ثم أمر قائد الجيش الأمير فخر الدين ان ينزل الى جزيرة دمياط وصار النيل بينه وبينها ، ولم يقدر السلطان على الحركة لمرضه ثم وصلت

سفن الفرنج وقد انضم الى جموعهم الحاشدة فرنج الساحل كله فارسلوا بالساحل بإزاء المسلمين وارسل الملك لويس للسلطان كتابا هذا نصه :

« أما بعد : فانه لم يخف عنك انى امين الأمة العيسوية كما انى اعترف بانك أمين الأمة المحمدية وانه غير خاف عنك ان أهل جزائر الأندلس يحملون الينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وقد ابديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لى بكل الايمان وذخلت على القسوس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ماردنى ذلك عن الوصول اليك وقتالك فى اعز البقاع عليك ، فان كانت البلاد لى فهى هدية وتمت فى يدى وان كانت البلاد لك والغلبة على فيدك العليا ممتدة لى وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء » (١)

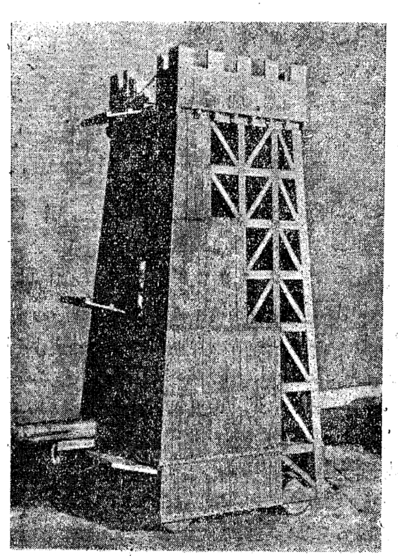
فلما وصل الكتاب الى السلطان وقرىء عليه اغرورقت عيناه بالدموع وقال « انا لله وإنا اليه راجعون» وأرسل الرد بخط القاضى بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الانشاء :

« بسم الله الرحمن الرحيم » وسلام الله وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . اما بعد فانه وصل كتابك تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه فلو رأت عينك — أيها المغرور — حولنا سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل واخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل . لكان لك ان تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسىء بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابى هذا فكن

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك . نشره الأستاذ محمد مصطفى زيادة ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

فيه على أول سورة النحل . أتى أمر الله فلا تستعجلوه . وكن على آخر سورة ص ،
ولتعلمن نبأه بعد حين . ونعود الى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : كم
من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، وان قول الحكماء ان
الباغي له مصرع وبغيك مصرعك — والى البلاء منقلبك والسلام .

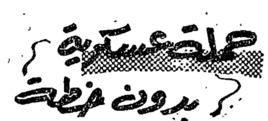


برج قتال

سقوط دمياط

اشتدت المعارك بين جنود الفرنسيين والقوات المصرية واستشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الاسلام والأمير صارم الدين ازبك الوزيرى وظلت المناوشات مستمرة إلى أن أرخى الليل سدولة فانطلق القائد الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معه من الجنود وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى يحتوى مدينة دمياط تاركين الجانب الغربى خاليا للفرنج ورحل فخر الدين قاصدا اشموم طناح — ولكن الجنود نسوا فى عجلتهم أن يرفعوا الجسر من على النهر فانقض عليه الفرنسيون واحتلوه ، وبهذا انفتح أمامهم الطريق ،

ولما رأى أهل دمياط رحيل الجنود تبعوهم ولم يبق بالمدينة أحد البتة وفروا إلى اشموم طناح — حيارى لا يدرون ماذا يفعلون — ومن الغريب أن دمياط تحملت فى أيام الملك الكامل حين نازلها الفرنج خسائر لم تكن أقل مما تحملته فى هذه المرة ومع ذلك لم يقدر الفرنج على انتزاعها أيام الكامل الا بعد انقضاء . عام بعد ما عمل الوباء والجوع فى أهلها فافنى منهم عدداً كبيراً واستولى الفرنج على المدينة عند شروق اليوم التالى . وغنموا ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة والاقوات والذخائر والأموال والامتعة وغيرها ، وكان فيها هذه المرة أيضا جماعة من شجعان بنى كنانة الذين فروا . وإذ ادركت القوات اشموم طناح كتم السلطان غيظه ونهض بالرغم من مرضه فاحيا الأمل فى قلوب رجاله وبقدر ما كان فى جسمه من الأعياء والوهن تجلت فى روحه قـــوة الشكيمة وعزم الرجال ، فانتفض فى فراشه كالاسد الجريح وقد ألهب ثائرته فرار الحامية من دمياط فاصدر أمره باعدام خمسين رجلا من بنى كنانة وعبثا حاولوا الدفاع عن أنفسهم وتبرير مسلكهم فانه صاح فيهم أنهم يستحقون الموت إذ سلكوا مسلك الجبناء بفرارهم قبل تلقى أوامره .



حملة عسكرية بدون خطة

دخل رجال الحملة الصليبية دمياط فوجدوا حصنها خاليا من حماته، ولكن مخازنه كانت مكتظة بكل ما تشتهيه الجيوش، فاستمرئوا البقاء، شأنهم فى قبرص من قبل وتوالت الشهور وأحس المصريون بخلود الفرنسيين إلى الراحة، فتشجعوا على مناوشتهم وشنوا عليهم الغارات، متوالية هوجاء وراح السلطان يمنح قطعة ذهبية عن كل رأس من رءوس الاعداء يأتيه به أحد جنوده، فضلا عن الاسرى.

وحينئذ اختل النظام فى معسكرات الفاتحين، وأصبحت دمياط مسرحا للتهتك وبؤرة للفساد، ولكم ساد الأفراط الفاضح فى الملذات والفجور، وطفقت المؤونة تنفد بسبب جشع التجار، ولم يكف كل هذا بل تعاقبت العواصف المنيفة على الوجه البحرى فحطمت ما ينوف على مائتين وأربعين سفينة من الراسيات على الشاطىء بالقرب من دمياط، ففدحت الخسارة فى الأرواح وتدمرت المخازن بما فيها من ذخيرة ومؤونة.

فلما وصل « الكونت دي بواتييه » من نبلاء الحملة إلى دمياط على رأس نجدة (٢٤ أكتوبر ١٢٤٩) جمع الملك مجلسا من الأشراف للبحث فى اختيار الطريق الذى يسلكه الجيش، وجرى الاستفتاء فى أى الطريقين افضل .. طريق الإسكندرية أو طريق القاهرة، فكان من رأى الكونت بيردى بريتانى ومعه بعض البارونات أنه يجب الزحف أولا على الإسكندرية نظراً لأن مرفأها يصلح لأن يكون قاعدة أمينة، ولأن امداد الجيش بحاجاته فى الأسكندرية اسهل منه فى دمياط.

ولعل أصحاب هذا الرأى كانوا ينظرون إلى أن الأسكندرية أعظم شأنا من دمياط، وأنها مدينة لا يجوع الجيش فيها بسهولة وذلك فضلا عن سائر الاعتبارات

العسكرية من حيث سلامة الطريق إلى العاصمة وخلوه من العوائق الطبيعية ... بيد أن الكونت دارتوا لم يوافق على هذه الخطة واستهجنها قائلا أنه لن يسير إلى الأسكندرية إلا إذا استولى الجيش أولا على القاهرة (بابليون) التي كانت مقر السلطان . ثم عزز رأية بان من يريدقتل الأفعى فعليه أن يبدأ برأسها . فامن الملك على رأيه وطرح جانباً الخطة الأولى التي لا شك أنها كانت الأفضل والأسلم عاقبة . ونحن لاندرى لماذا لم يستفد الملك لويس من أخطاء حملة « جان دى برين » السابقة فاتبع الطريق الذى سار فيه سلفه ، ولاسيما بعد أن حظى بالتوفيق فى بداية الأمر — على النقيض من سلفه — إذ سقطت دمياط بعد عراك ضئيل . ولكنه ضيع ستة أشهر فى أنتظار المؤن والأمدادات بينما كان السلطان يعبىء جيشه . ويقيم العراقيل فى سبيل الفرنسيين ، وأكبر الظن أن لويس التاسع واركان حربه لم يعنوا عناية كافية بدراسة المعارك التى دارت قبل ذلك بين الصليبيين والمسلمين فى وادى النيل ، وأنهم لم يدرسوا طبيعة الأراضى المصرية دراسة طيبة ، وحسبنا أنهم وقعوا فى عين الاخطاء التى وقع فيها أسلافهم .

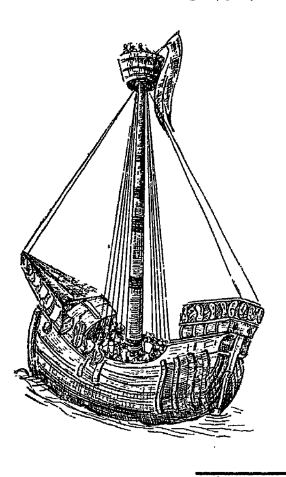
بدأ الصليبيون فى مغادرة دمياط متقدمين إلى القاهرة تاركين المدينة فى حراسة قوية وكان ذلك فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ .

ولذلك أمر السلطان بالانسحاب الى المنصورة وحمل فى حراقة (١)حتى أنزل بقصر مطل على النيل وجرى اصلاح السور المقام على النيل وستر بالستائر (٢) وقدمت

(١) الحراقة هى سفينة حربية كبيرة تحمل مكاحل البارود (المدافع) والمنجنيقات التى يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء والحراقة أقل من الشونة حجما وتمتاز بالمنجنيقات كما تمتاز الشونة بالقلاع وتستخدم لحمل الأسلحة النارية الأغريقية وكانت بها مرام تلقى منها النيران على العدو ، واستعمل فى مصر نوع منها لحمل الأمراء وكبار رجال الدولة فى الاستعراضات .

(٢) جمع ستارة وهى حائط خارجى مقام من الخشب أو غيره يحتمى وراءه المدافعون عن حصن أوسور ويستخدم المهاجمون الستائر أيضاً للوقاية من قذائف العدو وكانت تعمل أحياناً من اللبود وبطول المكان الذى يراد رميه بالقذائف كستر للرماه .

الشوانى المصرية [١] بالعدد الكاملة والجنود وأقبل الجند والمجاهدون من عامة الشعب . ووصلت وفود من العربان وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم وبدأوا يأسرون جنود الأعداء فوصل الى القاهرة سبعة وأربعون أسيراً من الفرنج وأحد عشر فارساً من خيرة فوارسهم ، وظفر المسلمون بعد أيام بمسطح [٢] للفرنج فى البحرية أثناء مقاتلة بالقرب من نستراوه [٣]



(١) كانت الشوانى أكثر سفن الأسطول المصرى استعمالا وهى سفن كبيرة ذات أبراج وقلاع تستخدم للدفاع والهجوم وتجهز فى أيام الحرب بالسلاح والنفطية وتحشد بالمقاتلة والجنود البحرية .

(٢) نوع من السفن جمعه مسطحات والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له سطح أو أكثر .

(٣) كانت تطلق فى تلك العصور على بلدة البرلس الحالية وعلى بحيرة البرلس أيضاً .

موت السلطان

فلما كانت ليلة الاثنين نصف شعبان عام ٦٤٨ هـ (٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ م) مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة وهو فى مقاتلة الفرنج عن أربع وأربعين سنة ، فكانت مدة حكمه للديار المصرية تسع سنوات وثمانية أشهر وعشرين يوماً : بعد ما عهد لولده الملك العظيم توران شاه وكان يقيم فى حصن كيفا وهنا يبدو دهاء الملكة شجر الدر فى اخفاء أمر وفاته فقد حملت جثة السلطان فى تابوت الى قلعة الروضة ثم نقلت عقب ذلك بمدة إلى ضريحه بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة .

وبعد موت السلطان أحضرت زوجته شجر الدر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والطواشى جمال الدين محسن . وكان أقرب الناس الى السلطان وحدثتهما بأمر الوفاة وأوصتهما بالكتمان خشية أن يتسرب الخبر الى الفرنج فاتفقا مع شجر الدر على القيام بتدبير المملكة إلى أن يقدم الملك المعظم توران شاه ومن ثم استدعت شجر الدر الأمراء (القواد) الذين بالمعسكر وقالت لهم :

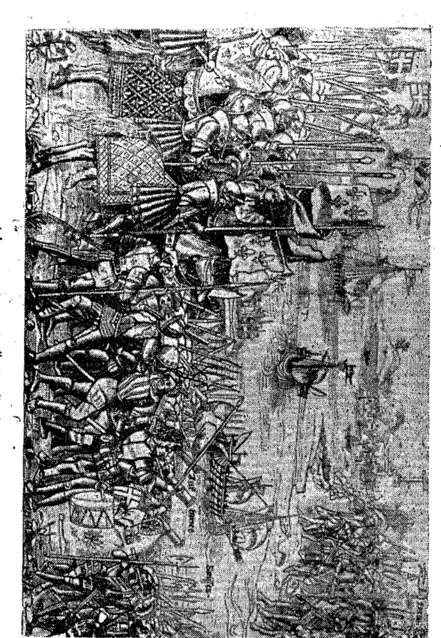
«إن السلطان قد رسم أمراً بأن تحلفوا له ولابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانا من بعده وللأمير فخر الدين بالتقدمة على العساكر والقيام بالاتابكية (قيادة الجيوش) وتدبير المملكة . »

فقالوا كلهم : « سمعاً وطاعة » ظنا منهم أن السلطان حى وحلفوا بأسرهم كما حلفوا سائر الأجناد والمماليك السلطانية .

وسار من المعسكر الفارس أقطاى — وهو يومئذ من رؤوس المماليك البحرية لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا(1) فخرج فى خمسين فارساً ، وكاد يقتل فى عبوره

---

(1) — يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجله بالقرب من مدينة أمد (ديار بكر)



نزول الجيش الصليبي على ر. دمياط

نهر الفرات إلا أن الله نجاه . أما الفرنج فلما بلغهم أن السلطان قد مات خرجوا من دميـــاط ونزلوا على فارسكور وكانت قرية من قرى الدقهلية — ثم رحلوا منها قاصدين المنصورة[1] متجهين على الضفة الشرقية للنيل وظلت قواتهم تواصل السير نهراً وبراً مسرعة تارة متوقفة أخرى إلى أن اعترضت طريقها ترعة أشموم (أشمون) — وهي تمتد على مقربة من شمالى المنصورة وعلى الضفة الأخرى منهـــا ترابط القوات المصرية . فكانت أول عقبة جدية صادفت الحملة منذ قيامها السيء الذى جعلها تلقى رحلها هناك وتضطر إلى إقامة معسكرها .

أما تلك الترعة التي واجهت المغيرين فهي ترعة يسمونها الآن البحر الصغير والحق أنها لم تلبث على حالها الأول إذ تغير مجراها منذ ذلك الحين تغييراً ملحوظاً فأصبح يتفرع عن النيل فى نقطه قريبة جداً من المنصورة [2] فى حين كان موضع التقائه فى تلك الأيام يبعد عن المدينة المذكورة إلى جهة الشمال بما يقرب من أربعة إلى خمسة أميال . وعلى صدر الرقعة الواقعة خلال هذه المسافة كانت القوات المصرية التى وقفت متأهبة للقاء الغزاة .... فكانت مسرحا للمعركتين الكبيرتين فى هذه الحرب .

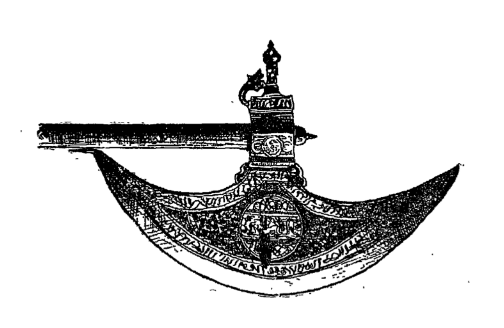
كان أول ما اهتم له الفاتحون هو تأمين أنفسهم فى مركزهم الجديد وتحصين معسكرهم بالأسوار والخنادق والمتاريس . فلما تم لهم ذلك نصبوا المنجنيقات وقاذفات الأحجار وراحوا يلقون الصخور على رؤوس المسلمين عبر القناة لعلهم يزحزحونهم عن مواقفهم ، بيد أن المصريين أجابوا ضربة بضربة وحجراً بحجر وحمى وطيس التراشق بينهما ليل نهـار حتى فدحت الخسارة من الجانبين فى الأرواح ، ومن ثم أدرك الصليبيون أن العدو يضاهيهم بل يفوقهم فى هـذا النوع من فن الحرب فقر قرارهم على ملاقاتهم وجها لوجه والاشتباك معهم فى معركة ظن الفرنسيون أن فى

---

١ — لازالت مدينة المنصورة فى موقعها الذى داهمها فيه الفرنسيون ولـكن اتسعت أرجاؤها وامتدت أطرافها امتداداً كبيراً وعلى الأخص ناحية الشرق .

٢ — وصلوها فى ١٢ ديسمبر عام ١٢٤٩ .

استطاعتهم كسبها بحذقهم ، ولذا بدأوا يشيدون جسراً يعبرون عليه القناة . ولكن قيام الصليبيين بهذه المهمة كان أمرا عسيرا ومحفوفا بالأخطار تحت وابل القذائف التى كان المصريون يمطرونهم بها من ست عشرة آلة كانوا يملكونها لهذا الغرض ، فلم يسع الملك لكى يحمى جنده الذين يعملون فى تشييد هذا الجسر الا أن امر بصنع ثمانى عشرة من مثل هذه الآلات ووضعها على الضفة المقابلة للعدو ، وأمر كذلك باقامة جسر متنقل مرتفع يعلوه برج من الخشب يقف عليه رماة النبال المهرة وحملة القسى.. فما انتهوا من تشييد هـــذا الجسر ذى البرجين حتى ازدادت حميتهم فى انهاء الجسر الكبير ، ولكن سرعان ما تبينوا ان المصريين أكثر منهم براعة فى فن الهندسة فقد كانوا يفلحون فى تدمير أجزاء الجسر التى يقيمها الصليبيون وذلك بأن يبادروا بحفر خنادق واسعة وعميقة فى ضفة القناة التى كانوا عليها فكانت المياه المحجوزة من الجسر تملأ تلك الحفر ، وينشأ منها تيار سريع يتلف الشاطئين فينهار فى يوم أو اثنين ما تم اقامته من الجسر فى عدة أسابيع .



المعارك الأولى

وبدأت المناوشات بين الجانبين فى ٧ رمضان (١٤ ديسمبر ١٢٤٩) فاستشهد العلائى امير مجلس وجماعة من الجند ، وخسر الفرنج بعض القتلى ونزل هؤلاء بشار مسارح ثم استولوا على البرمون فاشتد الكرب لقرب العدو من معسكر المنصورة ، وقد أصبحوا على مقربة منه وبينهم وبين المسلمين بحر اشموم ، وكان معظم قوات المسلمين فى المنصورة بالبر الشرقى ، وفى البر الغربى أولاد الملك الناصر داود أمير الكرك على رأس قوة من الجيش ، فاستقر الافرنج بمكانهم وخندقوا عليهم خندقا وادادوا سورا وستروه بالستائر ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المصريين ونزلت شوانيهم بإزائهم فى النيل بينما وقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة ووقع القتال بين الفريقين برا وبحرا ، ومما ينبغى ملاحظته ان الفرنج زحفوا تلك المرة على نفس الطريق الذى اتبعوه سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م)

وفى السادس عشر من رمضان قدم الى معسكر المسلمين ستة خيالة من المصريين ، علم منهم الجند حرج موقف الفرنج ، وفى أول أيام عيد الفطر أسر الكونت أنجو أحد إخوة ملك فرنسا ، واستمر القتال بين الفريقين وكانت خسائر الفرنج جسيمة وعلى الأخص على يد عامة المسلمين الذين كانوا يوقعون بهم أشد الخسائر واذ شعروا بقربهم القوا بأنفسهم فى الماء وسبحوا الى معسكر المسلمين وكانوا يتحيلون فى خطفهم للعدو بكل حيلة حتى روى المقريزى فى هذا الصدد ان بعضهم كان يأخذ بطيخة ويدخل فيها رأسه ويغطس فى الماء الى ان يقرب من الفرنج فيظنونه بطيخة وما ان ينزل أحدهم فى الماء ليتناولها حتى يختطفه المسلم ويعوم به الى معسكر المسلمين. واستمر القتال بين الطرفين أياما امتاز فيها المسلمون بالمبادأة بالهجوم ولقد استطاعوا ان يقضوا على مرمة عظيمة للفرنج نتيجة للنيران التى سلطوها عليها ، ومع ذلك فلم يتميز القتال بالعنف الذى يؤدى الى غلبة أحد الطرفين

سلاح جديد فى المعركة

وعلى أثر ذلك ظهر فى ميدان القتال سلاح أشد وأفتك من كل آلات الحرب. حينذاك ، فقد فوجىء الفرنسيون بشعلات رهيبة من اللهب تنصب على رؤوسهم كأنها تدفقت من علياء السماء . تلك هى النار الأغريقية ، مزيج الرعب والموت ، والسر الرهيب الذى انقذ الامبراطورية البيزنطية من الدمار . والذى ظل مغلقا كالطلسم أمام الشعوب الأخرى أربعة قرون حتى وقع المسلمون — قبيل هذه الحملة السادسة على مكنونه فعرفوه — وهو مركب عجيب اخترعه كالنيكوس وهو مصمم مدينة هيرا بوليس فى سوريا على عهد قوسطنطين بوجوناتوس الذى حوصرت القسطنطينية فى أبان حكمه بست سنوات على يد الغزاة العرب ، فلم ينقذها منهم غير هذا السلاح المريع من أسلحة الحرب وكذلك على عهد ليوالايزاوى اذ قام المسلمون بأعظم هجوم لهم وكانوا حينئذ — ولمدة قرنين بعد ذلك — فى قمة قوتهم وعنفوانهم ولم ينصرفوا عن القسطنطينية الا بعدحصار دام ثلاث سنوات، فكانت هذه النار الأغريقية أهم ما انقذها من الوقوع فى أيديهم .

وقد وصفت الأميرة أنا كومنينا إبنة اليكسيوس كومنينوس الذى شهد عصر الحرب الصليبية الأولى هذه النار فى كتابها عن سيرة ابيها فصورت مقدار روعها حين تعلو النار فى الجو وحين تشتعل ثم حين تنقض كقطعة من الجحيم فتشوى الناس وتتركهم مع متاعهم رمادا تذروه الريح ، وقد اشارت الى بعض عناصرها فقالت انها مزيج من النفط والزيت والكبريت يجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال. وكان هذا المزيج النارى يعبأ فى أنابيب من النحاس لها فوهة توقد منها وفى مؤخرها قوس تنطلق فتدفعها الى الأمام . وكانت تلك الأنابيب توضع بكميات كبيرة فى اسطوانة مستديرة وتلقى فى مدافع المنجنيق ثم تقذف على العدو فتصليه نارا حامية

اذ تنفجر بقوة الاصطدام فيندلع منها لهيب لا يمكن لانسان ان يخمده ، وينتشر شررها في كل جانب فتجعل ما حولها أتونا متلظيا .

ذلك هو السلاح الذى حطم به المصريون كل ما أعده الجيش الفاتح للهجوم ويأتى على وصفه الفارس « دى جوانفيل » وقد بلغ به العجب مبلغا فيقول :

« فى غسق الليل جاء المسلمون بآلة عجيبة ووضعوها تجاه الأبراج التى كنا ساهرين على حراستها أنا والسير والتركوريل ثم قذفونا منها بشىء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب . . نار كأنما هى الدنان المشتعلة وذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء ولها نور ساطع جدا من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء حتى أنك ترى كل ما فى المعسكر كما لو كان فى وضح النهار وقد رمى المسلمون علينا هذه النار فى تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة وأربع مرات من القسى العريضة .

وذهب جوانفيل فتحدث . . كيف أن أولئك الاتراك وضعوا قاذفة النار تجاه الصليبيين فى اليوم التالى لكى يحطموا أبراجهم وأسوارهم وكأنما فتحوا جهنم فجأة فى وجوههم ، فاندلعت النار فى برجيهم الخشبيين وامتدت السنتها تلتهم كل ما تصل إليه .

وازاء هذا كله صمم الملك على بناء مجموعة أخرى من الحصون والأبراج بدل التى احترقت بيد أنه لم يجد خشبا فى تلك المنطقة فاضطر إلى جلبه من السفن الراسية فى دمياط ، ومن ثم شيد عددا آخر من البروج تحت وابل من قذائف الأحجار ولكن لم يكن حظها أوفر من سابقاتها اذ سلط المسلمون نارهم الجهنمية عليها فاشتعل فيها اللهيب .

وحينئذ لم يبق للصليبيين حيلة ما ، فيئسوا وفتر نشاطهم بعد أن ذهبت كل محاولاتهم سدى فى عبور القناة والاشتباك مع العدو .. فاستدعى الملك هيئة أركان حربه وراحوا يقلبون الأمر على وجوهه ويتشاورون فيما ينبغى اتخاذه فى هذا السبيل المظلم (٦/٧ فبراير ١٢٥٠)

ولا ريب أن الجيش الفرنسى المهاجم كانت تنقصه المعلومات الصحيحة عن طبيعة المنطقة التى كانت تدور فيها رحى القتال ، ولا ريب أيضاً أن المسلمين كانوا يفوقونهم عدة وعددا حتى أن كل فرقة صليبية تخرج للكشف كانوا يقضون عليها فلا تعود .

ولعل الصليبيين لم يفكروا مطلقا فى ارسال الكشافين ليتعرفوا معالم مناطق القتال ويكونوا على بينة عند اشتباكهم فيها ، فالحق أنهم كانوا مخلصين فى القتال ولكن قادتهم لم يحذقوا أصول استراتيجية الحرب وفنونها وكان جهلهم بجغرافية البلاد المصرية وطبيعة أرضها من أهم أسباب فشلهم فى هذه المنطقة وفيما سبقتها من الحملات البيزنطية أو الصليبية على مصر .

ولما اجتمع الملك وأركان حربه وقواده صرح السير هومبرت دى بيجو بأن شخصا عرض عليه فى مقابل خمسمائة بيزانت ذهبية (١) أن يريهم مخاضة مأمونة فى البحر الصغير ماؤها ضحل وعبورها سهل ، ولكن هذا الشخص أصر على أن يتناول المال مقدما ، فقبلوا على الفور هذا العرض (فبراير ١٢٥٠)

وفى فجر الثلاثاء الثامن من شهر فبراير سنة ١٢٥٠م . عبر الملك مع أشقائه الثلاثة وقوة كبيرة من الفرسان هذه المخاضة ، وفاجأوا المصريين فى معسكرهم وقد كان القائد فخر الدين فى الحمام فخرج فورا وامتطى صهوة « جوادة » دون أن ينتظر حتى يلبس درعه وانطلق يلم شعث المسلمين ، والتحم بالعدو مقتحما صفوفه فى شجاعة ولكنه سقط مثخنا بالجروح ومات تحت سنابك الخيل ونزل الفرنج على جديلة (٢) وكانوا ألفا وأربعمائة فارس يتولى قيادتهم أخو الملك الكونت دارتوا .

---

١ — كانت قيمة البيزانت حوالى ستين قرشا

٢ — تل مطل على الشاطىء الجنوبى لبحر أشموم ، وكان المصريون قد نصبوا مجانيقهم وأبراجهم عليه أمام معسكر الفرنج .

اقتحام المنصورة
"٨ فبراير"

واقتحمت قوة الصليبيين المذكورة أحد أبواب المنصورة وانطلقوا وراء المسلمين الذين فروا هائمين فى أنحاء المدينة وحواليها لا يلوون على شىء ، ودخلوها دخول الفائزين غير أنه فى لحظة خاطفة طار النصر من أيديهم اذ باغتهم جيش المماليك البحرية — وقد كان فى انتظارهم خارج المدينة — فردهم على أعقابهم وطارد فلولهم فى كل مكان ، وتعقبهم فى الأزقة والشوارع ، فلما لاذوا بالبيوت يبتغون الاحتماء بها إنهال عليهم بالضرب سكانها وهم فى مجموعات صغيرة وتساقطت فوق رءوسهم القذائف من السطوح والنوافذ ولولا وصول الملك نفسه ومعه قوات صليبية أخرى لهلكوا عن آخرهم .

لقد كانت معركة المنصورة معركة الشعب والجيش ، ولاشك أنه لولا تهور قائد هذه القوة « الكونت دارتوا » شقيق الملك لما حدثت تلك النكبة الشنيعة والهزيمة المنكرة فقد غلبت عليه الحماسة وحب السبق ، فاندفع على أثر عبوره المخاضة بفرقته نحو كوكبة من خيالة المسلمين فطاردها وتعقبها الى المعسكر المصرى . وعلى يد رجاله ورجال فرقة الداوية التى لحقته كان حتف الأمير فخر الدين . ثم تقدم الكونت الى معسكر المسلمين واستولى على الجهة التى كانت بها الأسهم الحربية والمنجنيقات ويظهر أنه كان يبغى الانفراد بظفر ذلك اليوم من دون بقية الجيوش الفرنجية فلم يقف منتظراً وصولهم الى حيث وصل ، بل تقدم مسرعا نحو المنصورة ودخلها منصوراً — ثم اندحر ..

وقتل فى هذه المعركة ألف وأربعمائة فارس وكثير من نبلاء فرنسا — بعد أن أبدى الفريقان فى القتال بسالة منقطعة النظير ، وكان قائد المسلمين فى ذلك الهجوم

البارع المروع هو بيبرس — قائد المماليك البحرية الذى سرعان ما طبقت شهرته الآفاق والذى غدا بعد سنوات سلطانا على مصر .

وهكذا حمل المسلمون على الفرنج حملة صادقة زعزعت أركانهم وهددت صفوفهم

أما الصليبيون فقد أظهر ملكهم وأشقاؤه بسالة رائعة وتضحية نبيلة إذ كافحوا مع جنودهم جنباً إلى جنب ، وعرضوا حياتهم لأشد الأخطار ، حتى أن السيد « جوانفيل » يؤكد أنه لولا شجاعة الملك فى ذاك الوقت لهلك الجيش برمته ، وهو يصور القتال فى هذه المعركة فيقول :

أظهر العدوان مهارة فائقة وصلابة ودراية ، وقام أبطالهم بأعظم الأعمال وأروعها إقداما وجرأة ، إذ أن العراك فيها لم يكن بقوس ولا برمح ولا بقذيفة مدفع ، انما كانت صورة مروعة لملحمة هائلة اشتبكت فيها الأجساد البشرية وهى تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف والرماح مختلطة بعضها ببعض فليس هناك إلا ضربات ذات اليمين وذات الشمال وهنا وهناك وعلى الرؤوس وفى الصدور وخلف الظهور . صيحات تزأر وأنات تزفر وكأس المنايا على شفاه الصرعى تدور وبين ذاك طارت ضربة طائشة فصادفت الكونت دارتوا فخر صريعا لتوه ، فأخذ القائد درعه ورداءه أمام المصريين ، ولكى يؤجج نار الحماسة فى صدورهم قال لهم: هذا هو درع الملك ورداؤه فان الملك عدوكم قد مات .

هجوم مضاد للجيش المصرى بقيـــادة اقطاى

وفى يوم ١١ فبراير ١٢٥٠ قرر فارس الدين أقطاى — وهو القائد الذى اختير خلفا لفخر الدين — القيام فى الحال بهجوم كبير لتحطيم الجيش الصليبى ، ولكن الصليبيين عرفوا أمر هذا الهجوم من أحد جواسيسهم ، فبادر الملك بإعداد جيشه لهذا الهجوم . ورتبه فى سبع فرق كبيرة انتظمت على طول الضفة فى مواجهة المعسكر المصرى . إلا أن موقف الصليبيين هناك كان غاية فى الدقة والخطورة فقد كانت تحوطهم من خلفهم وعلى جانبيهم أنهار وترع عميقة سريعة الجريان وكان أمامهم العدو . فلم يكن لهم سبيل الى الاتصال بمعسكرهم فى الضفة الشمالية للبحر الصغير إلا قنطرة واحدة خشبية ، ثم أن جيشهم ولو أن جناحه الأيسر كانت تحميه بعض الشىء فرقة حملة القسى بقيادة السير هنرى دى كون المرابطة على الضفة الشمالية إلا أن الجناح الأيمن كان مكشوفا أمام القوات المصرية التى تهدده بقوتها الهائلة وتفوقه فى العدة والعدد .

يأتى المؤرخ جوانفيل على وصف خطة الهجوم التى أحكمها أقطاى والتى تدل على مهارته الفائقة فى تدبير حركات المعارك فيقول :

« أرسلت الشمس أول خيوطها ، ورأينا الأرض كأنها تتحرك أمام ناظريهـا وقد أقبل أربعة آلاف فارس يحملون سلاحهم ، ويتهادون على ظهور جيادهم فى منظر رائع . ووقفوا تجاهنا فى أبدع نظام . وبعد قليل ظهر من خلفهم جيش جرار من المشاة ، حجب من كثرته أمامنا وجه الأفق .. فأحاطوا بجيشنا كله . وعلى الأثر تبدى من وراء هؤلاء جيوش أخرى لا يعرف البصر مـداها فاصطفت فى المؤخرة على نسق عجيب . ولاح القائد المصرى على رأس جيوشه ينظمها ويرتب صفوفهـــا وأماكنها . فلما انتهى من ذلك تقدم وحده على ظهر جواده ، وسرح البصر فى قواتنا فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندنا أوفر ، وبانقاصها فى الأماكن التى يرانا فيها أقل قوة . وظل هذا القائد منهمكا فى تلك العمليات حتى إذا ما انتصف النهـار

وقف وسط جنوده فى مهابة وجلال . وبإشارة من يده دوى فى الفضاء فجأة صوت الطبول وضرب النقرزان ، وكأنما زلزلت الأرض وانتفضت السماء بقصف الرعود. فامتلأت بالدهشة والروعة قلوب أولئك الفرنسيين الذين ما دق سمعهم من قبل مثل هذا الصوت الرهيب . ثم بدأ الخيالة والرجالة فى السير معاً فى خطوة واحدة وفى كل جانب وبدأ الهجوم .

« وتنقلت فرق العدو على رقعة الميدان بنظام عجيب ، كأنما لاعب ماهر ينقلها على رقعة شطرنج . واندفع مشاتهم نحو رجالنا فأصلوهم بالنار الإغريقية ثم انقض فرسانهم فى سرعة عظيمة وحماسة هائلة على فرقة الكونت دانجو فأنزلوا بهـا هزيمة نكراء . وكان الكونت منتصباً على قدميه ، ومعرضا نفسه للخطر المحقق لولا أن أنقذه أخوه الملك ورد الأعداء عنه . بيد أن الجيش أصيب بضربة قاضية، فبين الفرق السبع التى يتألف منها هلكت إثنتان إحداهما بقيادة فرايار وليم دى سناك قائد الفرسان الداوية ، وكان قد دخل المعركة بمن بقوا على قيد الحياة من رجاله بعد موقعة يوم الثلاثاء المروعة . ولما كان شاعراً بضعفها فقد أقام أمام معسكره حاجـزا من المتاريس تكون من بعض ما غنموه من العدو وما جمعوه من كتل الخشب . ولكن هذا كله كان عبثا لا طائل تحته — فقد أحرقه المسلمون بنارهم ، وأطبقوا على رجال الفرقة فى شدة وعنف ، وسرعان ما قضوا عليهم القضاء المبرم. وكان قائدها «دى سناك» فقد إحدى عينيه فى معركة يوم الثلاثاء الآنفة الذكر ، ففقد الثانية فى هذه المعركة ثم سقط قتيلا وهو يدافع لآخر رمق دفاع الأبطال ...

« أما الفرقة الأخرى التى فتك بها العدو فكانت بقيادة الكونت (دى بواتييه) وهى تتألف من المشاة عدا الكونت فقد كان راكبا جواده فأبيدت هـذه الفرقة عن آخرها وأسر قائدها غير أنه تمكن من الفرار إلى معسكر الفرنج .

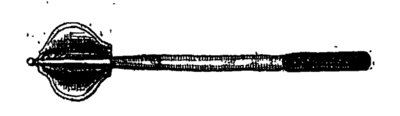
« والفرقة التالية لفرقة الكونت (دى بواتييه) كان على رأسها جوسيران دى برانسون وهى أضعف الفرق جميعاً وتتكون من المشاة فنفذ العدو بين صفوفها فى كل جانب وأوشك أن يفتيها كلية لولا أن أدركها الكونت « دى كون » بجماعة كبيرة من جنوده حملة القسى من الضفة الأخرى للبحر الصغير فأنقذوا بعض رجالها وان كان دى برانسون سقط قتيلا وخر بجواره صفوة فرسانه ومعظم البواسل من جنده »

إعادة التنظيم وانتشار المرض

توقف المصريون عن القتال وتركوا الفرنسيين فى أخطر المواقف وأحرجها ... فإن محاولتهم بعد ذلك الهجوم على المصريين كانت مستحيلة ، فى حين أن بقاءهم فى أماكنهم كان معناه الهلاك المؤكد — ومع ذلك فمن الغريب أنهم لم يتحركوا وأضاعوا الوقت كما أضاعوه مراراً من قبل .. فكان كل يوم يمر يزيد مركزهم سوءاً ، إذ تفشى فيهم مرض مريع ولم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا أن يلقوها فى النيل والقناة غير أنه بعد أيام قلائل طفت هذه الجثث على وجه الماء — وقد ترك لنا جوانفيل صورة أليمة لذلك المنظر البشع ، حين تراكمت على سطح الماء طبقة من الجثث المشوهة .. هى كل ما بقى من أولئك المحاربين التعساء .

والواقع أن الوباء انتشر بسرعة مدهشة ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ظهر أيضاً مرض الاسقربوط نتيجة لنفاذ المؤونة وقلة التغذية — فأصيب معظم رجال الجيش حتى الخيل لم تنج منه وماتت . ومع كل هـــذا فان فكرة الانسحاب لم تدر بخاطر الصليبيين حتى ذلك الوقت .

وفى اليوم التاسع عشر بعد المعركة — أى فى يوم ٢٥ فبراير — وصل توران شاه إلى المنصورة وما أن دخل المدينة حتى نودى به سلطانا عـــلى مصر — ووضعت شجر الدر سلطتها بين يديه . وعندئذ أعلنت وفاة السلطان نجم الدين رسمياً .





قطع خطوط الانسحاب (٢٥ فبراير — مارس)

وكانت المؤن والعتاد ترد إلى الفرنج من دمياط على ظهر السفن فى النيل ، فصنع المسلمون عدة سفن ونقلوها مفككة على الجمال إلى بحر المحلة شمالى البحر الصغير وطرحوها فيه بعد أن زودوها بالمقاتلة . فلما جاءت سفن الفرنج لبحر المحلة خرجت عليها سفن المصريين من مكامنها ، كما قدم لمساعدة المسلمين أسطول آخر من المنصورة ، وهنا أخذت مراكب الفرنج أخذاً وبيلا . وكانت اثنتين وخمسين مركبا ، قتل المسلمون أو أسروا نحو ألف رجل من بحارتها وغنموا سائر ما بها من الأزواد والأقوات وحملوا الاسرى إلى المعسكر المصرى .

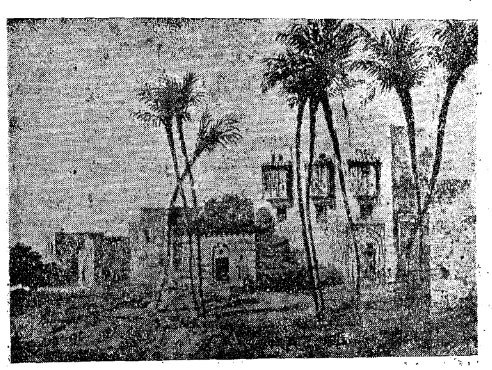
واستمرت هذه الأغارات النهرية يوما أثر يوم حتى حل الفناء بسفن الفرنج وعزل جيش الصليبيين فى الدلتا عن قواتهم فى دمياط . وأخيراً أحرق الفرنج ما لديهم من العتاد وأتلفوا بعض سفنهم تأهباً للفرار الى دمياط .

وكانت أول خطة اهتدى اليها السلطان الجديد هى قطع مواصلات الفرنج ليشل حركة تموينهم ويقضى عليهم بهذه الوسيلة ، فلاعجب أن أصاب المعسكر الصليبى ضنك قاس ول مجاعة مريعة . روى لنا دى جوانفيل أخبارها فى بساطة مؤثرة .

وعلى الرغم من أن جيش الصليبيين كان مهدداً إذ ذاك بالفناء التام فقد حدثت فترة أخرى من التأخير الذى يبعث على العجب ، وأخيراً قرر الملك الانسحاب فأعطيت الأوامر بأن على جميع الكتائب الموجودة فى شمالى البحر الصغير أن تتقهقر أولا . بيد أنه حدث خلال تنفيذ هذا الأمر أن قام العدو بهجوم عنيف فاكتنفت

مهمة الانسحاب صعوبة طارئة وقد بذل الفرنسيون كل ما فى طاقتهم من جهد لنقل القوات فى الوقت الذى كانت فيه مؤخرة الجيش معرضة لأشد الضربات ، حتى لقد كادت المؤخرة تتخلف عن باقى الحملة لو لم ينقذها الكونت « دانجو » ونخبة قوية من فرسانه (أول ابريل ١٢٥٠) .

وعقب أن بدأ الانسحاب على هذه الصورة ، طلب الملك فتح باب المفاوضات مرة أخرى مع السلطان ، غير أن المصريين كانوا يعلمون هذه المرة بما يلقاه العدو من الشدائد — إذ نقص عدده وتحطمت عدته كما نفدت مؤونته — وصار فى حال من البؤس لا يرجى له من بعدها قومة ولا حياة — فطلبوا من ذلك الجيش العاجز ضمانة للانسحاب من دمياط . وكان المفروض أنهم سيكتفون بأحد أشقاء الملك رهينة لديهم ولكنهم رفضوا أية رهينة غير الملك نفسهُ . وقد قالوا ذلك لرسوله السير جويفيرى دى سيرجين « فأجابهم فى شهامة أنهم لن يستولوا على شخص الملك مهما فعلوا ، وأن الفرنسيين يفضلون ألف مرة أن تقطع رقابهم جميعاً عن أن يقال أنهم أعطوا الملك رهينة عنهم .



دار ابن لقمان حيث سجن الملك لويس

المجاعة والتسليم

وظلت الحال معلقة فترة من الزمن فالمصريون يصرون على أخذ الملك ولا يرضيهم بديلا والفرنسيون يأبون أن يسلموا ملكهم — حتى اشتدت عليهم وطــأة الجوع وطوت بطونهم قسوته وتكاثر فتك الحمى ، وارتفعت بينهم ضحاياها فثارت نفس الملك وصاح فى حاشيته أنه لن يستطيع بعد ذلك أن يبقى على ظهر سفينته آمنا بينما رعاياه يكابدون ألم الضنك ، وصمم على أن ينزل إليهم ليعيش بينهم ويموت مثلهم .

إنه لموقف عصيب ما فى ذلك من شك أو ريبة . فها هوذا القوت قد نفد والجوع ينهش بأنيابه الرهيبة بطون أبناء فرنسا ، والأرض مفروشة بأجساد مرضاهم ، والفضاء يرتجف بأنات الألم وحشرجة الموت وقد ماتت الخيول وقتل صفوة الأبطال وزهرة الشبان .

لقد أخفقوا فى مفاوضات التسليم ، ولم يبق أمامهم ما يفعلونه إلا أن يعودوا ... ويالها من عودة قاتلة محفوفة بالخطر .

وفى أثناء انسحاب الفرنسيين عادوا فارتكبوا الغلطة التى وقعوا فيها قبلا إذ ولوا فى عجلة وذعر فنسوا أن يدمروا القنطرة التى عبروا بها البحر الصغير ومن ثم قدموا بأنفسهم للعدو ممراً يجتازه فى أعقابهم ويضيق عليهم الخناق فى آخر الأمر .

وكان الخط الوحيد الذى يتسنى الانسحاب فى اتجاهه هو الجسر الترابى المرتفع على شاطىء النيل وكان يقطعه على طول المسافة كثير من القنوات العميقة ومجارى المياه المختلفة من الفيضان ، فضلا عن أنه كان مخفوراً فى أكثر نواحيه بالجند المسلمين .

وقد بدأ الانسحاب فى مساء الخامس من ابريل سنة ١٢٥٠ حين تحرك الجيش

الصليبي متجها صوب الشمال تاركا خلفه أكداسا مكدسة من العتاد والذخائر والمهمات وكل حاجيات الجيش ، نعم تركوها غنيمة طيبة للمصريين .

وكان الجيش المصرى يجوس طول الليل أنحاء الميدان ويتصيد من يقع فى يديه من المتعبين أو الهاربين . بينما كانت مؤخرة الجيش الصليبي بقيادة السير « والتر دى شاتيلون » تبذل جهود الجبابرة فى ستر الانسحاب .

تبع المصريون الجيش المنسحب وهو فى حالة يرثى لها واستمر النضال وطالت المطاردة حتى وصلوا إلى فارسكور . وهى فى ثلثى المسافة إلى دمياط وهناك توقفوا إذ أصاب المصريين الجهد والتعب من جراء القتال والمطاردة .

ويقرر المؤرخون العرب أن فى قتال الانسحاب قضى من الصليبيين ثلاثون ألف رجل وقد يكون هذا التقدير مبالغاً فيه ، ولكن الشيء المفروغ منه هو أن من بقى من الجيش الفرنسى عقب ذلك كان عليه الاختيار بين الموت أو العبودية إلا إذا اعتنق الاسلام .

وأحاط المسلمون بالقوات الفرنسية وأجروا فيهم سيوفهم واستولوا عليهم بين قتلى وأسرى أما ما غنموه من الخيل والبغال والأموال فهو مالا يحصى .

ويرجع فضل كبير فى تحقيق هذا النصر إلى بلاء المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى بلاء حسنا وشجاعتهم وانتهازهم فرصة انسحاب العدو فى صورته التعيسة !

وهكذا انتهت معركة المنصورة بنصر ساحق .

الملك الأسير

روى جوانفيل قصة اعتقال الملك كما سمعها من بين شفتى مولاه فيقول « تخلف الملك عن فرقته وانضم إلى فرقة السير « والتردى شاتيلون » الذى يقود مؤخرة الجيش وكان ممتطيا صهوة جواد صغير ، ولم يكن معه من رجاله سوى ذلك الفارس الأمين « سيرجيوفرى سيرجين » الذى دافع عنه حتى بلغ الاعياء بالملك مبلغا قاتلا ، فتوقف الملك ومن معه على مقربة من بلدة تدعى (منية أبى عبد الله) على مسيرة بضعة فراسخ فى الشمال من المنصورة ، وهناك أحاط بهم العدو وأصبحت المقاومة إذ ذاك عبثا ، فسلموا أنفسهم بعد أن أمنهم العدو على حياتهم وكان عددهم يربو على الخمسمائة ومعظمهم من الفرسان النبلاء وفى الحال أخذ المصريون الملك على إحدى السفن ونقلوه إلى المنصورة حيث اعتقل فى دار ابراهيم بن لقمان كاتم سر السلطان ، وهناك ألقوه مقيداً بالسلاسل وأبقوه فى حراسة الخصى صبيح الذى أمر بأن يعامله بما يليق بمقامه من التجلة والاحترام .

ولا تزال هذه الدار التى أسر فيها الملك لويس التاسع باقية بالمنصورة بجوار مسجد الشيخ الموافى ، ويقوم فيها اليوم متحف تاريخى لتخليد آثار المعركة .

وتذكر المصادر العربية أن السلطان المعظم أرسل غفارة الملك [1] إلى نائب دمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور فلبسها — وهى اسكرلاط أحمر [2] تحته

---

(١) غفارة الملك — بضم العين أو كسرها ومعناها غطاء الرأس أو العباءة

(٢) عباءة من النسيج الأحمر

فرو سنجاب ، وفيها مشد من ذهب ، فنظم الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن إسرائيل مقطعات ثلاثا ارتجالا ، كل مقطعة بيتان فى مدح السلطان والأمير . الأولى :

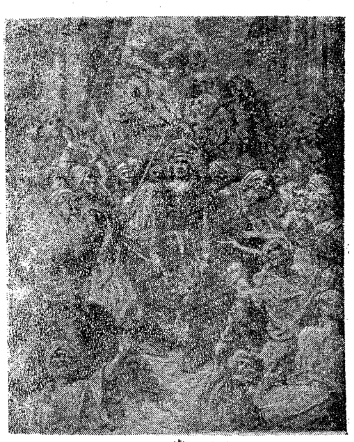
إن غفارة الفرنسيين قد جاءت حباء لسيد الأمراء
بياض القرطاس فى اللون لكن صبغتها سيوفنا بدماء

والمقطعة الثانية للأمير :

يا واحد العصر الذى لم يزل يحوز فى نيل المعالى المداء
لا زلت فى عز وفى رفعة تلبس أسلاب ملوك العداء

والثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب إلى السلطان .

أسيد أملاك الزمان بأسرهم تنجزت من نصر الإله وعيده
فلا زال مولانا يفل حمى العدى ويلبس أسلاب الملوك عبيده



الملك الأسير

نهاية توران شاه (٢ مايو سنة ١٢٥٠)

فى خلال المعارك الدامية بين المسلمين ، انفجر بركان ثورة مفاجئة ، فانقلب كل شىء وتبدل مؤقتا سير الأمور .

ذلك أن توران شاه كان قد ورث عن أبيه الصالح نجم الدين ذلك الوجه العبوس فأثار طغيانه واستبداده المبكرين دهشة القادة المصريين، وكان قد أتى فى ركابه من حصن كيفا بعض الندماء الشبان ، وهؤلاء سرعان ما تسلطوا على تفكيره وأصبحوا وحدهم محل رعايته الشىء الذى أوغر صدور الأمراء وأوقد غيرتهم وطرد توران شاه كثيراً منهم من وظائفهم . ابتغاء مرضاة هؤلاء الندماء وجردهم من مظاهر الشرف والسلطان ليسبغها عليهم وبدلا من اعترافه بالجميل الذى أسداه إليه هؤلاء الأمراء فى الدفاع عن مصر ، راح يبدى فى كل أعماله الريبة وانعدام الثقة نحو أولئك الرجال الذين صدوا عن بلاده غزو الغزاة . وبلغ من إخلاصهم له أن نادوا به سلطانا وهو ما يزال غائبا فى بلاد نائية على مسيرة عشرات الأيام .

وكان توران شاه قد وعد القائد أقطاى بأن يعينه حاكما للأسكندرية ، ولكنه أخذ يسوف ويماطل فى الوفاء بهذا الوعد ، فخلق له — من ثم — فى شخص هذا الرجل عدواً رهيبا، فضلا عن أن ندماءه الخليعين قد أثاروا حقده وضغينته على السلطانة والأمراء إذ ما فتئوا يرددون على مسمعه أنه ليس سلطانا إلا بالاسم وأما السلطة الحقيقية فهى فى أيدى هؤلاء الأمراء وعلى رأسهم شجر الدر ويسخرون منه قائلين لماذا جئت إلى مصر إذن ؟ أفما كان من الأفضل أن تبقى فى العراق ، ثم راحوا يوسوسون له بأن يسارع بالاتفاق مع ملك فرنسا على أن يسلم الصليبيون دمياط ويغادر أرض مصر ، وبذلك يتخلص من نير الأمراء ويخلو له الجو فيمكنه إذ ذاك الانتفاع بخدمات ندمائه المخلصين .

ووجد الدس تربة صالحة له ، فنما وأثمر وكان من ثمره أن انفتحت هوة عميقة من العداء والبغضاء بين السلطان وقواد الجيش ، وازدادت تلك الهوة مع الأيام عمقا وكان من ثمار ذلك الدس أيضا أن نشب شقاق عنيف بين السلطان الجديد وشجر الدر فبالرغم من أنها خدمته بكل اخلاص وبالرغم من أنه يدين لها بعرشه وتاجه وبنجاة مصر من أعدائها فى غيبته فقد بدأ فى مضايقتها واستفزازها بأن طلب منها، أن تقدم له حسابا مفصلا عما صرف من أموال الدولة . وعن المبالغ التى تركها أبوه فى الخزانة مع بيان كامل بالثروة التى خلفها فأعلنت السلطانة فى سخط وحنق أن المال قد انفق فى المرافق العامة وعلى الحرب مع الصليبيين .

وإذ أحست شجر الدر بالخطر المحدق بحريتها وحياتها تملكها الانزعاج والذعر والتجأت الى أنصارها من أمراء المماليك البحرية لما يكنونه نحوها من الحب والاخلاص ، ولما يشعرون به من القلق على أنفسهم من تصرفات السلطان — إذ أنه كان — إلى جانب كل تلك النواحى القبيحة فى طبعه — سكيرا ماجنا ، يعكف كل وقته على الشراب والفجور ولم يكونوا على غير علم بأنه — بين خمره وسكره وفى وسط عشرائه الهازلين — كان يفوه بأوقح التهديدات ضدهم . فمن ذلك أنه راح فى إحدى الأمسيات وهم على مائدة العشا. يضرب بسيفه رءوس الشموع الموقدة أمامهم صائحا فى كل ضربة ، وهكذا سأقطع رأس فلان ذاكراً أسماء كبار ضباط الجيش ومن ثم عقدوا النية فيما بينهم على التخلص منه والاستئثار بسلطته قبل تسليم دمياط .

وكان توران شاه قد أمر بتشييد سرادق فخم على ضفه النيل بالقرب من فارسكور مسور بسياج جميل وفى حديقته الغناء حمام فاخر وعلى جانبيه ابراج من الخشب احدهـا اعلى من باقيها وقريب إلى النهر .

ففى فجر أول مايو تناول توران شاه طعام الأفطار مع بعض ضباطه ثم قام ليستريح فى ذلك السرادق وهنالك اقتحم مضجعه فجأة أحد الأمراء — ويقال أنه بيبرس قائد المماليك البحرية — وجرد سيفه وهوى به على رأس السلطان ولكن هذا

تفادى الضربة بذراعيه فمزقت أصابعه ثم اغمى عليه ، فلما رأى ذلك المعتدى دم السلطان متفجراً من جرحة تملكه الفزع لما اقترفه وانطلق هاربا ، وفى الحال ضرب النفير وهرول إلى السرادق كثير من الضباط والخدم فلما سألوا السلطان عمن جرحه اجاب بانه « واحد من البحريين » فقالوا يظهر أنه أحد الاسماعيليين فهز رأسه قائلا كلا أنا واثق أنه واحد من البحريين » وحينئذ تقرر فى لوح القدر مصيره إذ عرف المماليك البحرية أن الأمر لم يعد يحتمل صبرا فإما حياته وأما حياتهم .

ونقل توران شاه إلى البرج وضمد جرحه ولكن سرعان ما تكاثر حول البرج عدد من المماليك وعلى رأسهم أقطاى ونادوا لكى ينزل اليهم فوجد عندئذ أنه وقع فى الفخ فراح يتوسل اليهم ويستدر عطفهم وشفقتهم وعرض عليهم أن ينجز وعده بجعل أقطاى حاكما للاسكندرية بل أبدى رضاه بأن يتنازل عن عرشه فى نظير أن يبقوا على حياته ويتركوه يعود إلى حصن كيفا ولكنهم خوفا على أنفسهم قسوا قلوبهم وضيقوا عليه الخناق . فلما لم يسلم نفسه اليهم أتوا ببعض النار الاغريقية والقوها على البرج فاندلعت فيه السنه اللهب وعندئذ فزع السلطان وجرى نحو النيل لعله يصل إلى احدى سفنه ولكنهم لحقوا به وهو يسبح وقتلوه فى الماء بجانب السفينة التى كان على ظهرها « جوانفيل » وقد رأى بنفسه كل ما حدث .

وعلى الرغم من أن الجيش قد علم بكل ما يدور هناك إلا أنه لم يحرك ساكنا فان أعمال السلطان فى الفترة القصيرة التى قضاها بين جنودة جعلته مكروها من الجميع ولم تبذل سوى محاولة واحده لانقاذه إذ تشفع من أجله الأمير حسام الدين ولكن البحريين وقفوا فى وجهه وجردوا سيوفهم وصاحوا أن السلطان قد مات وكذلك كان نائب الخليفه فى بغداد موجودا إذ ذاك فى المعسكر ، فحاول أيضا مساعدة السلطان إلا انهم اعتقلوه وهددوه بالموت لو أنه تدخل ، وتركت جثة السلطان ملقاه على ضفة النهر يومين كاملين حتى قام بدفنها بعض الفقهاء .

وبموت توران شاه انتهى حكم الأسرة الأيوبية فى مصر . وقد كانت من مبدئها إلى منتهاها دولة فتح وجهاد . ولولا وقوفها فى وجه الصليبيين لانقرض الإسلام من الشام والجزيرة ومصر وشمال إفريقية ، وقد خلفها فى حكم مصر سلاطين المماليك .

مفاوضات التسليم

كان المماليك قد عقدوا العزم على إعدام جميع الأسرى ، إذ أنهم دفعوهم دفعا وألقوا بهم إلى جوف السفينة فوق بعضهم ، وقد اختلطت — كما يقول جوانفيل رؤوسهم بأقدامهم — وظلوا طول الليل على هذه الحال فهو يقول «كانت أقدامى فى وجه «الكونت بيير دى بريتانى» وكانت أقدامه فى وجهى .

على أنهم فى الصباح ، أطلقوهم من هذا المكان المكتظ وقرر المماليك أن الملك لن يسمح له بمغادرة مصر إلا إذا دفعت زوجته الملكة — وكانت لا تزال فى دمياط — مبلغ أربعمائة ألف دينار (تساوى حوالى ٢٣٠٠٠٠ جنيه) فدية له وضمانة لذلك قرروا الاحتفاظ بجميع المرضى الذين كانوا فى دمياط بالاضافة الى المخازن والأسلحة .

ومرة أخرى يبدو للصليبيين كأنما المخاوف قد انتهت . ولكن كان الخطر مع ذلك لا يزال قائما ، إذ علق المسلمون رضاهم بالصلح على أن يقسم الملك بصيغة معينة على الشروط التى انتهوا اليها . فلما سمع الملك هذه الصيغة التى وضعت بواسطة بعض المسيحيين المرتدين هالته بعض جمل فيها وبادر إلى رفضها رفضا باتا . إذ جاء فيها أن الملك لويس إذا نكث عهده فانه يعتبر قد حلف زورا ويكون ملعونا كمسيحى أنكر الله والمعمودية والاخلاص والايمان)

فحينما سمع الملك ذلك القسم وهو يتلى عليه تميز غيظا وحنقا وصاح قائلا أنه مستحيل أن يقترف هذه الجريمة أو ينطلق لسانه بهذا الاثم . وحينئذ بعث العلامة «نيكول» إلى الملك قائلا أن الأمراء فى أشد الغضب وأنه يشعر شعورا أكيدا بأنهم

مصممون — إن لم يقسم الملك القسم كما وضعوه له ـ أن يقتلوه هو وجميع رعاياه ولكن الملك أصر مع ذلك على الرفض . .

ثم يقول جوانفيل فى مرارة « لا أدرى إن كان الملك قد فاه بالقسم أم لا » ولكن كيفما كان الأمر فقد وافق القواد وأمراء الأسطول على ما أقسم به الملك وأرسل « السير جيوفرى دى سيرجين » إلى دمياط أمرا بإخلاء المدينة للمسلمين فلما تم الجلاء كان من المتعين بعدئذ أن يطلق سراح الملك مع الأسرى الآخرين .

وكان من الشروط التى قبلت بمقتضى القسم أن يدفع الملك قبل أن يغادر وادى النيل مبلغ مائتى ألف جنيه ، أما الباقى وقدره مائتا ألف جنيه أخرى فيسدده من عكا وضمانا لدفع هذا المبلغ قرر المسلمون الاحتفاظ بجميع المرضى الذين يعالجون فى دمياط أما كل المخازن والأسلحة وآلات القتال واللحوم المملحة الموجودة فيها فاشترط ألا تعاد هذه كلها إلى الملك إلا إذا دفع باقى الفدية .

والظاهر أن بعض أمراء المسلمين ترددوا فى قبول الفدية من الملك الأسير ، ولكن تم الاتفاق أخيراً على تسليم دمياط بكل ما فيها .

وعلى إثر إبرام هذا الاتفاق نقل الملك وفى معيته بعض النبلاء إلى فارسكور وتسلم المصريون دمياط بعد أن ظلت فى يد الفرنج أحد عشر شهراً وتسعة أيام ، وأفرج عن الملك بمجرد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار كما أخلى سبيل أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه وسائر الأسرى الذين بلغ عددهم حوالى ١٢٠٠٠ أسير [١] .

أصبح الملك فى أمان ، غير أن شقيقه الكونت دى بواتييه كان لا يزال فى يد المسلمين وكان الملك متشوقا إلى أن يدفع الفدية فى سبيل إطلاق سراحه .

وفعلا أرسل المال من لدن الملكة التى غادرت دمياط قبل الجلاء عنها ، وقد استغرق

---

(١) المقريزى : المرجع السابق . ج ١ ص ٣٦٣ .

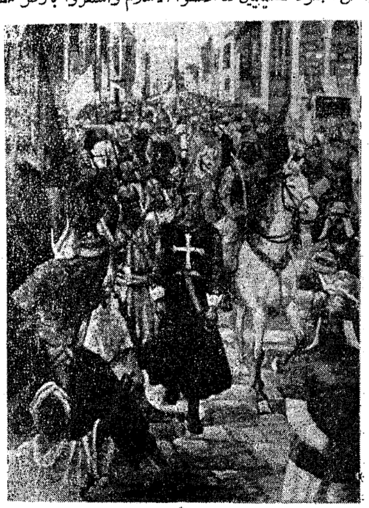
دفع هذه النقود سحابة يومين كاملين وكان تقديرها بالوزنات وكل وزنة تبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب حوالى ٥٧٥٠ جنيها ، وفى مساء اليوم التالى وجـــد أتباع الملك أنه ما زال باقيا عليهم ثلاثون ألف قطعة ذهبية ناقصة من مبلغ الفدية فنصح جوانفيل للملك بأن يقترض هـــذا المبلغ من الفرسان الداوية ، ولكن الأب دى تريكور رئيس هؤلاء الفرسان اعترض مؤنبا جوانفيل لإبدائه مثل هذا الاقتراح وقد هدد بأنه إذا أخذ الملك ذلك المبلـغ منهم بالقوة فسوف يأخذون لأنفسهم تعويضاً من الأملاك التى للملك فى عكا ، فسخط جوانفيل لهذا التهديد وطلب من الملك أن يأذن له بالذهاب إلى سفن الفرسان واغتصاب المبلغ المطلوب ، فحين وصوله إلى هناك وجد خزانة مغلقة على سطح إحدى السفن ولما رفضوا أن يفتحوها له تناول أحد القلاع وكسرها بالقوة فانخلع القفل وأخذ مقدار النقود التى بقى عليهم دفعها وعاد إلى الملك فسر سروراً عظيما ودفعت الفدية إلى آخر درهم وأطلق سراح الكونت دى بواتيه .

وفى مثل هذا المجال يطيب لنا أن نذكر أنه — خلال تحديد الفدية — وقع حادث ليس الأول من نوعه ولكنه يؤكد ما تنطوى عليه نفس الملك من شرف ونبل وسمو وذلك أن السير فيليب دى منتفور أحد صيارفة الملك قال له أن المسلمين قد أخطأوا فى عد وزن من الذهب فلم يأخذوها وأن هذا الخطأ قد عاد على الفرنسيين بعشرة آلاف قطعة ذهبية فغضب الملك لهذا غضباً شديداً وأمر السير فيليب — احتراما للثقة التى أولاها إياه فى تمثيله لدى الأعداء — أن يدفع إليهم عشرة آلاف قطعة فى الحال . وصمم الملك على أنه لن يبرح الشاطىء إن لم يدفع آخر درهم من الفدية المفروضة عليه ، فلما سلمت بأكلها تم عندئذ تنفيذ القسم الذى قطعه على نفسه فأبحر على سفينته الخاصة إلى عكا فى ٧ مايو سنة ١٢٥٠ .

فلول الحملة

وفيما كان الأمراء يتفاوضون مع الملك سأله حسام الدين عن عدد جنوده حينما نزل إلى دمياط فأجابه بأنهم كانوا تسعة آلاف وخمسمائة فارس ومائة وثلاثين ألفاً من المشاة غير الخدم والعمال ولا شك أن هذا العدد مبالغ فيه جداً فأما أن يكون الملك قد أراد تضخيم قوته ، واما أن المؤرخين المسلمين بالغوا فى عدد أعدائهم ليزيدوا من قيمة انتصارهم .

وعلى أى حال فان تلك الحملة الصليبية الكبيرة التى نزلت إلى أرض مصر فقدت معظم قواتها فى وادى النيل فقد ذكرت المصادر التاريخية أن الأسرى الذين أطلق سراحهم لم يزيدوا على إثنى عشر ألف رجل وعشر نساء، وحتى هؤلاء لم يطلق سراحهم كلهم سريعا بل ان بعضهم ظل راسفا فى أغلال الأسر وقتاً طويلا ، ومن المحتمل أن عدداً كبيراً من الجنود الصليبيين قد اعتنقوا الاسلام واستقروا بأرض مصر .



الملك الأسير

معاهدة الصلح ٥ مايو ١٢٥٠

نصت المعاهدة بين الطرفين على الشروط التالية [١] .

١ — أن يرد الملك لويس مدينة دمياط إلى المصريين .

٢ — أن يخلى الملك سبيل المسلمين الذين فى أسره .

٣ — ألا يقصد سواحل البلاد الاسلامية مرة أخرى .

٤ — أن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف دينار [٢] فدية عن الأسرى المسيحيين يقدم نصفها مقدما قبل اطلاق سراح الملك والنصف الآخر بعد مغادرة مصر .

وتعهد المصريون من جانبهم

١ — بأن يطلقوا الأسرى المسيحيين الذين وقعوا فى قبضتهم فى هذه المعركة ومن أسروا منذ عهد السلطان العادل أيوب ، وأن يرعوا المرضى من الفرنج الذين بدمياط وأن يحافظوا على معداتهم بالمدينة إلى أن تحين الفرصة لأخذها .

وأقسم الطرفان بالمحافظة على نصوص تلك المعاهدة لمدة عشر سنوات .

ومع ذلك فلم يحافظ الملك على احترام المعاهدة كما سنرى .

---

١ — حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٣٥
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٦ ص٣٦٩ العبر لابن خلدون ج ٣ص٣٧٣ .

٢ — تقدر قيمة الدينار حسبما جاء فى مالية مصر لعمر طوسون ص ٥ — ٦ بمبلغ ستين قرشا وعلى هذا تقدر الفدية بحوالى ٤٨٠٫٠٠٠ من الجنيهات المصرية الذهبية .

سفر الملك (٨ مايو ١٢٥٠م)

وحدث أن كانت سفينة تابعة لمدينة جنوه راسية بقرب الشاطىء تجاه البقعة التى مر بها الملك بعد الأفراج عنه . ولم يكن يبدو غير واحد على ظهرها ، ولكنه فى اللحظة التى وقع فيها بصره على الملك صفر بفمه نغمة خاصة وفى الحال وثب إلى الشاطىء ثمانون من حملة الاقواس وقد تسلحوا تسليحا تاما ، وقد حنوا اقواسهم وفوقوا سهامهم ، وباسرع من لمح البصر التى لوح خشبى على ضفة النهر وعبره الملك إلى السفينة ثم تبعه شقيقه وتشارلس اوف انجو وسير جيز وجوانفيل وبعض الآخرين وما تم النصر حتى سارت انباؤه إلى القاهرة ومصر وشتى انحاء القطر وأعلن الناس السرور والأغتباط وعادت قوات الجيش إلى القاهرة .

فلما كان يوم الاثنين الثالث عشر انعمت شجر الدر على الأمراء ارباب الدولة بالخلع السنية ووزعت الأموال على سائر الجند .

وللشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح قصيدة طريفه فى وداع الحملة الصيبية ننقلها هنا .

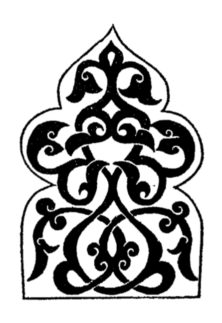
قل للفرنسيس إذ جئته	مقال نصح من قوول فصيح
آجرك الله على ماجرى	من قتل عباد يسوع المسيح
اتيت مصرا تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى ادهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون الفا لا يرى منهم	إلا قتيل أو اسير جريح
الهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح

إن يكن البابا بذا راضيا	فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا انه	انصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم ان ازمعوا عودة	لاخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

أفول الروح الصليبية

تلك كانت نتيجة الحملة الخائبة ، وقد كانت الروح الصليبية — فى ذلك الوقت — تكابد طور النزع الأخير — فلا عجب ان عجلت هذه الحملة بأفولها ، ذلك أن المملكة اللاتينية فى الأرض المقدسة ما لبثت بعد فترة وجيزة أن تقلص ظلها ثم زالت . . وكان من أهم أسباب زوالها النهائى نشاط سلاطين المماليك فى قتال الصليبيين وامعانهم فى العمل على طردهم من الشرق الادنى .

فما مرت احدى واربعون سنة على نزوح لويس التاسع عن مصر حتى قام سلطانها الاشرف خليل باحتلال عكا فى ١٨ مايو سنة ١٢٩١ وقضى على البقية الباقية من إسلطة الفرنج لا فى بيت المقدس فقط ، بل وفى جميع انحاء الوطن العربى .



الفصل الثالث

تحليل معركة المنصورة

مصر فى أعقاب المعركة

العوامل الاستراتيجية والتكتيكية — طرق سير الحملة — الاستيلاء على دمياط — الاسباب التكتيكية — الأسطول النهرى

ظهور المماليك — شجر الدر والسلطان عز الدين ايبك — السلطانة تقتل زوجها — فارس الدين اقطاى — معركة عين جالوت — السلطان قطز وانتصاره على المغول — ركن الدين بيبرس

تحليل معركة المنصورة . .

العوامل الاستراتيجية والتكتيكية :

لعله قد اتضح للقارىء فى الفصل السابق اسباب فشل حملة الصليبيين على مصر واندحار قواتهم فى معركة المنصورة ، ومع ذلك فلزيادة الايضاح ، سنوجـــز أهم العوامل التى كانت سببا لانكسار الحملة الصليبية السابعـــة على مصر واندحارها وخيبتها :

يمكن تحليل هذه الأسباب إلى نوعين رئيسيين : عوامل استراتيجية وأخرى تكتيكية ونوجز الأسباب الأولى فيما يأتى : —

١ — لم تدرس الخطة الكبرى للحملة ولم تبحث تفصيلاتها بعناية قبل الاقدام عليها

ومما يثير الدهشة ، أنه لم يكن قد مضى أكثر من ثلاثين سنة على حملة صليبية أخرى اتبعت نفس الخطة ونزلت في دمياط ، وكان الفشل نصيبها !

كان للصليبيين السيادة البحرية فى شرقى البحر المتوسط ، وكان لا ينازعهم فيه الأسطول العربى ، فيتيسر لهم نقل القوات والعتاد إلى قبرص ومنها إلى ساحل مصر ومع ذلك فقد خسروا الحرب فى حملتى ١٢١٨ / ٢٠ م ٢١ ، ١٢٤٩ / ١٢٥٠ م .

هـذا إذا أغفلنا حملة الملك أملريك عام ١١٦٣ /٦٩ م لاخـــتلاف الأحوال السياسية حينذاك ، فقد كانت مملكة بيت المقدس ما زالت قائمة ، وفى حاجة إلى حماية عسكرية ،وكان من الصعب أن ينقل منها بعض قواتها لمعاونته فى حملته ضد مصر . ولم تكن هذه الأحوال موجودة فى أثناء الحملتين الأخريين فى خلال القرن الثالث عشر

ذلك لأن مملكة بيت المقدس كانت قد انكمشت وانطوت على قليل من القلاع الساحلية وتستطيع تلك أن تدافع عن نفسها ، وكان الدفاع عنها متيسراً ومضمو نا إذا هاجمت عكا أو صور مثلا قوات دمشق أو بيت المقدس فى أثناء القيام بالحملة على مصر . فالبحر من ورائها يعج بالسفن الصليبية ، فضلا عن المساعدات التى يمكن أن تمدها بها البندقية أو جنوه ، وعلاوة على هذا ، فقد كان قوام الحملة الكبرى على مصر قوات وافدة من غربى أوربا ، وليس من قوات الممالك الصليبية فى فلسطين . وعلى أى حال لم يكن هناك خطر جسيم يهدد أمن تلك الممالك الصغيرة .

وكانت مصر إذ ذاك تبدو فريسة للغزاة ، فهى ذات ثراء موفور ، يحكمها سلطان يعتمد على قوات عسكرية مأجورة وتتكون من أخلاط الأتراك والأكراد والتركمان والعرب والسوريين ، وكان التنافر مستحكما بين حكام مصر وسورية ، ويتقاسم البلدين عدة فروع من الأسرة الأيوبية . وفى عام ١٢١٩ كان السلطان الملك الكامل يحكم فى القاهرة والمعظم فى دمشق ، ومع أن حسن التفاهم كان يسود العلاقات بينهما ، ولكن لم يكن من السهل أن يتفقا على تنفيذ خطة موحدة ضد العدو المشترك .

وكانت خطة الصليبيين لغزو مصر مستقلة عن خطة الدفاع عن فلسطين سواء فى عام ١٢١٩ بقيادة جون دى برين أو عام ١٢٤٩ بقيادة الملك لويس . ولم يكن من العسير على قائد موهوب أن يفوز بالنصر إذا كان على رأس حملة حربية كتلك التى قادها جون أو لويس . أما الاحتفاظ بالأرض بعد ذلك أى بعد القضاء على القوات المدافعة فكان أمراً محتملا . ومع ذلك فقد كانت التجربة أو المشروع يستحق أن يقام به وينفذ .

ولكن المشكلة إذا لم تكن بالأمر الصعب أو المستحيل فأنها تحتاج إلى الدرس والعناية إذا اتخذنا القواعد الاستراتيجية العامة مرشدا . فاذا أراد العدوان يمسك مصر من رقبتها ، فينبغى عليه أن يعجل بالمسير للاستيلاء على القاهرة بعد أن يتخذ له قاعدة على ساحل البلاد . وهناك سبيلان هامان يحققان النجاح ويوصلان إلى القاهرة مع مراعاة اجتناب المسالك المائية والترع الكثيرة التى تنتشر فى الدلتا . فما هى طرق التقدم !! .

هناك طريقان : —

١ — النزول إلى البر بالقرب من الاسكندرية والابتعاد ما أمكن عن الفرع الغربي للنيل كما فعل بونابرت فى ١٧٩٨ ، ثم التوجه إلى دمنهور فالجيزة ، وعيوب هذا الطريق أن مراحله تقع كلها فى الصحراء إلى أن تصل القوات الغازية وتجد القاهرة أمامها ونهر النيل الكبير يفصلهما عن بعضهما ، وليس عبور النيل بالأمر اليسير ولا سيما بعد أن يبتعد الجيش عن قاعدته بالاسكندرية ويصبح فى حاجة إلى إمداد متواصل .

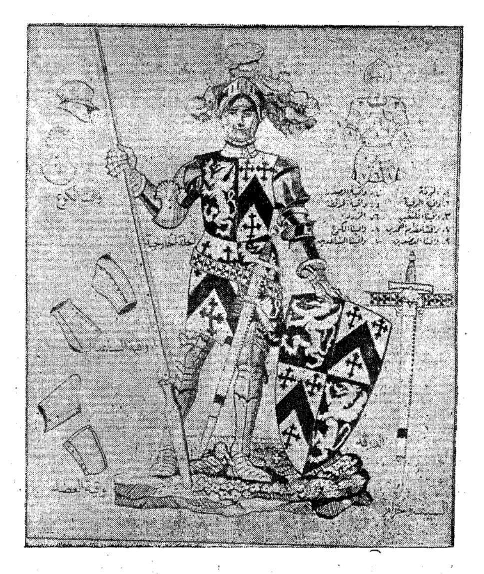
٢ — والطريق الثانى قد يكون أفضل من الأول هو طريق الصحراء العربية الشرقية وذلك بالنزول عند موقع الفرما (شرقى بحيرة المنزلة) ثم المسير إلى الصالحية وبلبيس ومنها رأسا إلى القاهرة مبتعداً ما أمكن عن الفرع الشرقى للنيل ، ومن مزايا هذا الطريق أنه يجعل القوات المعتدية أمام القاهرة مباشرة . وليس فيه ترع أو مسالك مائية تجبرها على العبور والمسافة التى سيقطعها حوالى مائة ميل تقريبا من (بلبيس)

وليس فى هذا الطريق صعوبة تذكر سوى أن مراحله الأولى تقع عبر أراض صحراوية .

ونلاحظ أن معظم الغارات ضد مصر اختار قادتها هذا الطريق . . . فهو السبيل المفضل الذى سارت فيه جيوش قمبيز الفارسى وأسكندر المقدونى ، وانطيوخوس ابيفانس وعمرو بن العاص وسليم الأول . أما لورد ولسلى قائد الحملة البريطانية فانه استفاد من قناة السويس واقتصد حوالى أربعين ميلا فى مسير قواته ، وكان هذا الطريق معروفا تمام المعرفة عند الصليبيين ، فقد سلكه املريك عام ١١٦٨ حينما استولى على بلبيس ثم حاصر القاهرة ، وكان من المحتمل جداً أن تقع فى قبضته لولا أنه قبل مفاوضة خصمه وتسلم الجزية وعاد إلى فلسطين .

ولذلك يدهشنا كثيراً أن يهمل جون دى برين والملك لويس هذا الطريق . وأن يختار كلاهما النزول عند دمياط . فالطريق من هذا الثغر إلى القاهرة يخترق

صميم الدلتا المزدحمة بالترع والقنوات وفروع النيل الكثيرة إذا ذاك . وعبر كل هذه الموانع الطبيعية كان المصريون قد اختاروا عدة مواقع دفاعية منيعة لمقاتلة الاعداء وكسر شوكتهم وأضعافهم حتى يصلوا القاهرة (إذا وصلوا) منهكى القوى . ولم يكن هناك أدنى شك فى فشل خطة الفرنج . وقد ادرك المصريون سبل الدفاع ، وعبأوا له كل ما كان فى طاقتهم ليحرموا العدو ثمار النصر ، ولم تنهض القوات المسلحة بواجب الدفاع وحدها بل انضمت لها جموع الشعب المتحمسة .



مقـــاتل صليبي

الاستيلاء على دمياط

استولى جون دى برين على دمياط عام ١٢١٩ م بعد حصار استمر حوالى ثمانية شهور، نقد فى خلالها عدداً ضخما من قواته وعتاده ، فلما بدأ المسير بقواته عبر الدلتا إلى القاهرة كانت مجهدة ، فاضطر إلى الوقوف على شاطىء ترعة أشمون ، يقابله جيش السلطان الكامل وقد حاول عـــدة مرات اختراق الجبهة ولكنه فشل ، واخيراً ادركه اليأس حينما عرف أن الأرض التى تفصله عن قاعدته فى دمياط قد غمرتها مياه الفيضان ، بعد ارتفاع ماء النيل ، ثم قطع المصريون الجسور ، فكانت الطامة الكبرى ، فاسرع التقهقر إلى دمياط بينما تهدده المياه من كل جانب ، والسلطان يضغط بجيشه للاطباق على قواته واضطر اخيراً إلى المهادنة والصلح ، فسمح له السلطان بالجلاء واخلاء دمياط .

أما موقف حملة لويس فكان كالآتى :ـ

السلطان وصل من سورية مريضا ، والأمراء يتنافسون على تولى العرش بعد وفاته . وأسوأ من ذلك أن دمياط سقطت فى قبضة الصليبيين بعد مناوشات غير عنيفة ، وفرار جزء كبير من حامية دمياط وهلع الأهالى الذين فقدوا من يتولون الدفاع عنهم ! ومع ذلك نرى الملك لويس يضيع حوالى ستة اشهر فى دمياط وهـــو ينتظر وصول بقية أسطوله وعتاده وأمداده ...

وفى خلال تلك الأشهر كان السلطان والقادة يعبئون القوات ويعدون المواقع ويحشدون العقاد ويستنجدون بالأمراء ويقيمون العراقيل والموانع فى وجه الأعداء . وأخيراً بدأ لويس (نوفمبر سنه ١٢٤٩) تقدمه . وكان ينبغى عليه أن يتقدم نحـو الجنوب بسرعة قبل أن يستعد المصريون ويقدم الصيف ومعه فيضان النيل السنوى ...

ولكن مباغتة الهجوم كان قد ضاع أثرها ... وفى أبان تلك الفوضى قام أحد قادة الملك مقترحا التقدم عن طريق الأسكندرية ! فكأنه لم تكن للقادة خطة موضوعة للحملة ! فضلا عن جهلهم المطبق بجغرافية البلاد !

الأسباب التكتيكية

١ – تلعب العوامل التكتيكية دورها فى المعركة منذ بدأ الملك لويس تقدمه من دمياط والتقاءه بعدو عنيد لا يستسلم ولا يتزحزح قيد أنملة عن أرض اجداده .

ففى يوم ٢٠ نوفمبر بدأ جيش لويس المسير ببطء وبحذر متجها نحو فارسكور – شارمساح والفرمون وفى نفس الوقت كانت سفائنه تسير فى النيل بمحاذاة قواته ثم وقفت القوات (١٩ ديسمبر) أى أنه قطع حوالى خمسين ميلا فى أربعة أسابيع .

وقفت الجنود لأن الملك وجد أمامه مانعا مائيا منيعاً يقطع الطريق . فبالقرب من المنصورة (حينئذاك) ينقسم فرع دمياط الى فرعين ، أحدهما يتجه نحو دمياط والآخر يتجه شرقا حتى يصب فى مستنقعات بحيرة المنزلة (يطلق على هـــذا الفرع ترعة أشمون أو البحر الصغير) وأمام الفرع الأخير وقف الفرنسيون مضطربين ولكن استمرت المناوشات بين الجانبين .

٢ – لجأ لويس الى إقامة الأبراج ليحتمى خلفها أثناء عمل جسر ترابى يعبر عليه ترعة أشمون ، ولكن قواتنا كانت واقفة له بالمرصاد ، فكانت تخرب أول بأول ما يقيمه ..

وكان المنتظر أن يكون البرجان ذوى فائدة للصليبيين فى تحطيم الاستعدادات المصرية ، لكن جرت الأمور عكس ما هو منتظر ، فقد تمكن المصريون من تحطيم البرجين بفضل استعمالهم النار الاغريقية التى فاجأوا بها العدو ، وأخذت من بهما من الجنود فى كل جانب ، حتى أصبحوا يرون الغنيمة فى الخروج منهما سالمين . واستطاعت القوات المصرية تكبيد العدو خسائر جمة ، فلما رأى الملك ما فيه رجاله من المحنة لم يجد غير الصلاة ، عسى أن تدفع عن قواته الخطر الأكيد ، وهنا يبدو لنا استخدام سلاح مفاجىء أمرا هاما فى انتصارنا .

٣ — وبينما الملك يقاسي هذه المتاعب أمام المعسكر المصرى لا يدرى ماذا يعمل جاءه خائن — قيل أنه بدوى — وأرشده إلى مكان مخاضة على ترعة أشمون ، تقع الى الشرق من المعسكرين المصرى والصليبى ، ويسهل عبورها (١) فصمم الملك على اجتيازها ليلا على رأس طليعة كبيرة من الفرسان الذين يستطيعون عبورها ولم يتمكن المشاة من متابعتهم (٧ / ٨ فبراير ١٢٥٠) وكانت أوامر الملك صريحة ومفادها ألا يتقدم أحد ما أمامه . فاجأ الصليبيون معسكر المصريين فاقتحموه واختلطوا به وأخذوا يعملون سيوفهم فى رقاب القوم وهم بين اليقظة والنوم ، وعم الاضطراب المعسكر إذ لم يتوقع أحد مثل هذا الهجوم المفاجىء ، وكان الصليبيون قد نصبوا لأمير الجيش المصرى كمينا بين المعسكر والمنصورة وأقبل عليه فرسان الداوية فأصابوه بعدة ضربات وفقد الجيش قائده . . ثم ارتكب كونت دارتوا خطأ جسيما بتهوره واسراعه بفرقته الراكبة إلى المنصورة ، واختراق طرقاتها ومسالكها الضيقة قبل أن يتمكن الملك بقواته الأصلية من اللحاق به ، فأحاط الأهالى بشراذم الأمير المتهور ، وكانت قد تفرقت فى المدينة ، وقضوا تماما على تلك الفرقة وقطعوا رجالها اربا اربا (٢) ولما وصل لويس لم ينجح الا فى الوصول إلى أطراف المنصورة على حساب خسارة فادحة فى فرسانه ومع ذلك فقد تمكن من اختراق طريق له حتى وصل الى الضفة المقابلة لمعسكره الأصلى ، أى الشاطىء الجنوبى لبحر اشمون ، وتمكن

---

(١) — تألفت هذه الطليعة من البارونات واتباعهم من المعسكر وفرسان الداوية فى المقدمة يتلوهم فريق كونت دارتوا شقيق الملك .

(٢) — اشترك الأهالى مع قواتهم المسلحة فى القضاء على المعتدين فكانوا يرمونهم من نوافذ المنازل وأسطحها بكل ما تصل اليه أيديهم من الأسلحة المنزلية والحجارة وكان الفضل فى هذا النصر للشعب .

مشاته من انشاء الجسر الترابي الذي كانوا قد بدأوه منذ زمن وعبروا عليه ولحقوا بقوات الملك ، وهكذا نرى أن الصليبيين بالرغم من خسائرهم الجسيمة قد احتلوا موقعا طيبا جنوبي بحر أشمون ولكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من الانتفاع باستثمار نجاحهم الابتدائي . . فقد كان نجاحا قصير الأجل . وثبتوا في موقعهم الجديد ولم يتقدموا بل تباطأوا أسابيع أمام المنصورة وجمدوا حتى أصبحوا في معزل لا يستطيعون التقدم نحو المنصورة واستعادتها ولا يستطيعون التقهقر المنظم من حيث أتوا .

وقشبت في عصر ٨ فبراير ١٢٥٠ معركة أخرى استطاع الصليبيون خلالها صد المماليك ، ويعود الفضل في ذلك الى شخصية الملك نفسه . الذي رأى أن يقوم مع ما تبقى من قواته بواجب حرس المؤخرة لقوات المشاة التي لم تكن قد عبرت بعد بحر أشمون وقد استمرت هذه المعركة حتى الثالثة بعد الظهر وكان النجاح فيها حليف الملك .

وكان مشجعا لهم وصول الامدادات من صليبي سورية وقبرص وانضمامها الى صفوف لويس في أثناء الأيام الثلاثة التالية ومما استحال معه على المماليك أن تكون لهم الكفة الراجحة واضطروا الى الارتداد إلى المنصورة (١) . وإن لم يكن هذا الارتداد هزيمة للماليك أو نصراً للفرنسيين . ولكن مما لاشك فيه أن الجانبين خسرا الكثير في الرجال والعتاد ولا سبيل إلى انتصار قوات لويس إلا بالاستيلاء على المنصورة . ولكن ما كان أبعدهم عن تحقيق هدفهم المنشود .

فقد كان الأهالي على استعداد دائما لتعويض جيشهم كل ما يفقده بينما كان تعويضها عند الصليبيين أمراً عسيراً . وفعلا لم يصلهم إمداد عدة أسابيع وفي خلال تلك الأسابيع كانت الضربات تتوالى على الصليبيين بينما تقل الأقوات والمؤنة ودون أن يستطيع أحد القيام بأية حملة في الداخل على المدن المجاورة لضمان الأقوات ، ولذلك كلما طال الوقت كان ذلك في صالح المصريين الذين لم يغب عنهم هذا العامل الهام فاستغلوا الأسابيع السبعة لما فيه صلاح أحوالهم وايقاع الضرر بالعدو ، وأخذوا في

---

١ ـــ حسن حبشي : الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٨٨ .

بناء السفن وجمع المجاهدين والذخيرة ، وكانت كل هذه العوامل داعية إلى ترجيح كفة المصريين على الفرنسيين .

وأمام كل هذه المتاعب المريرة بدأ الملك يفكر فى الانسحاب إلى دمياط ، ولكن هل يترك المصريون أعداءهم ينسحبون فى أمان ونظام ؟

٣ ـــ الأسطول النهرى :

عمد المصريون فى أثناء تلك المرحلة من المعركة الكبرى إلى صنع السفن وحملوها مفككة على الجمال إلى بحر المحلة وطرحوها فيه بعد أن شحنوها بالمجاهدين ، وكانوا يهدفون القيام بقطع السبيل على الصليبيين ، حتى يعجزوا عن تموين أنفسهم فان وجود السفن المصرية فى النيل وترعه وشحنها بالمقاتلين يعرقل أيه حركة لتموين العدو ولقد نجح المصريون فى ذلك إلى حد كبير فحينما قدم أسطول من دمياط يحمل المؤونة إلى الصليبيين عند البحر الصغير ، كمنت له فى الطريق حتى إذا شارفها باغتته ، ونشب القتال بين الجانبين وحينذاك أقبل الأسطول المصرى من ناحـــية المنصورة فانتزع المصريون النصر إلى جانبهم ، واستولوا على عدد كبير من السفن وفقد العدو حوالى ألف رجل منهم بين قتيل وأسير . وهكذا قطع هذا الأسطول الناشىء خط الرجعة على العدو وأصبح فى شبه عزلة تعيسة . ثم توالت المعـــارك النهرية بين الفريقين ، وكان من أعنفها معركة يوم عرفه عام ٦٤٧ هـ / ١٦ مارس ١٢٥٠ م ، حينما التقت شوانى المسلمين عند مسجد النصر بسفن الصليبيين وفقد هؤلاء فيها اثنين وثلاثين سفينة من بينها بضع شوانى .

٤ ـــ المجاعة والأمراض

ولم يقتصر الحال على نكبات الهزيمة . فقد فشت المجاعة وضعفت الروح المعنوية وانتشرت الأمراض والأوبئة بين الجنـــد وكانت المجاعة أكبر عامل شجـــع المصريين على الاستمرار فى القتال ومضايقة العدو وأخذ الموت يتخطفهم وهم فى معسكراتهم .

٥ ــ تعذر الانسحاب

كل هذه المتاعب مجتمعة أرغمت الملك على الانسحاب والارتداد إلى دمياط ففكر فى إحراق معداته الثقيلة وتدمير سفنه لكى لا ينتفع بها المصريون . ولكن هل يترك المصريون هذا الجيش المهزوم يفر أمام أعينهم دون أن يتعقبوه وينالوا منه حتى يفنوه .

وهذا ما ذكره المقريزى فى وصف المرحلة الأخيرة من المعركة فقال ان الصليبيين رحلوا بأسرهم من منزلتهم يريدون دمياط وانحدرت مراكبهم فى البحر قبالتهم فتتبعهم المصريون بعد أن عبروا الماء الفاصل بينهم . ثم أحاطوا بالمؤخرة وأعملوا فى رجالها القتل والأسر وبينما كانت خسارة المصريين طفيفة جدا لا تعدو مائة رجل خسر الصليبيون عشرة آلاف قتيل وأسر منهم مائة ألف . واذا كان العدد مبالغاً جدا فان مما لاشك فيه أن الخسارة كانت جسيمة .

وهكذا اختتمت المرحلة الأخيرة من معركة المنصورة وتم فى خلالها أسر الملك لويس وكبار قادته ثم تسليمه دمياط والجلاء عن البلاد بعد دفعه الفدية عن نفسه وعن رجاله .

ولعلنا قد أوضحنا فى تلك الصفحات تحليلا لمعركة المنصورة الباسلة ، تلك المعركة التى تعتبر فى تاريخنا بداية رد الفعل العظيم ضد الصليبيين ، فمنذ انتصارقواتنا وتعاون الشعب معها ، توالت الهزائم على الصليبيين فى سورية بفضل ثلاثة من قادة الجيش وهم الظاهر بيبرس الذى قضى على أهم قلاعهم فى حصن الأكراد عام (١٢٧٢ م) والسلطان قلاوون ثم الأشرف خليل الذى أخرجهم من آخر معاقلهم المنيعة فى عكا (عام ١٢٩١ م) .

مصر فى أعقاب معركة المنصورة

المماليـــك :

رأينا شجر الدر أول سلطانة على مصر من غير الأيوبيين ، ولما لم يوافق الخليفة العباسى على توليها العرش ، تنازلت بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوماً للأمير عز الدين أيبك . وكان أحد الأمراء المماليك ، وتدرج فى المناصب حتى بلغ رتبة أمير فى جيش المماليك البحرية ، لما اتصف به من شهامة وغيرة دينية ثم انتخب سلطانا ، إلا أن حكمه أظهره على حقيقته ، طاغية مستبدا فانقلب سفاكا لدماء الأبرياء ، فظا غليظ القلب ، لا لشىء إلا ليجعل نفسه مرهوب الجانب . وبعد فترة وجيزة من توليه الحكم ، عقد زواجه على شجر الدر فكانت — مع أنها نزلت على العرش — هى الحاكم الحقيقى لمصر . إذن لا بد أن هذه المرأة التى استطاعت أن تمد نفوذها وتخضع لشوكتها جنوداً شرسين متمردين مثل المماليك ، أنه لا بد أنها كانت على جانب عظيم من المقدرة والذكاء وقوة الشكيمة ومضاء العزيمة . والحق أنها صرفت بنجاح موفور كثيراً من شئون مصر الخارجية . ولا يخفى المؤرخون العرب أعجابهم بشجاعتها ومهارتها فى صد الصليبيين وفى إحباط دسائس المسلمين الذين تحالفوا مع الفرنج فى سورية .

إلا أن الظروف التى ولى عز الدين أيبك فيها العرش كانت تبعث على الأسى والاشفاق ، فقد كانت مصر مهددة بغزو المغول ، أولئك الهمج الذين اجتاحوا فى الفترة الواقعة بين عامى ١٢٠٦ و ١٢٢٧ م ، معظم الأراضى الواسعة فى شمال الصين وعلى رأسهم « جنكيز خان » ، ثم نفذ بهم إلى قلب آسيا ، فأخضع كل مدائنها ، وانقض فرسانه القساة الجبابرة على الممالك الاسلامية فطووها تحت سنابك الخيل إلى حدود سوريا حتى خضع لسطوة المغول فى خلال الثمانية والستين عاما من حكمه

وحكم خلفائه الأربعة — الجانب الشرقي كله تقريبا من آسيا وقسم شاسع من أوربا — وفي أثناء كراته وهو يلتهم المدن ، كان يبيد سكانها عن بكرة أبيهم ، ويتركها رمالا وأطلالا . فلما اعتلى عز الدين أيبك عرش مصر ، كانت جيوش المغول تحت قيادة هولاكو ، وهو حفيد جنكيز ، تتدفق كبركان متفجر نحو سوريا ، وفي عام ١٢٥٨م حطموا أسوار بغداد وحرثوها حرثا ، وقتلوا المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين .

فاينما حلت قبائل المغول كانت تتفتح افواه القبور فتشوى فيها مدنية الأمم !! فما كان في رؤوسهم غير فكرة واحدة وغرض واحد ، هو سفك الدماء لا لغاية سوى أطفاء شهوتهم الوحشية وأضرام النار في معالم العمران ، وأشمال السعير في أطلال المدن ، وحين اغاروا كاسراب الجراد الفاتكة على بغداد والموصل ودمشق ، تلك المدن الجليلة الوادعة ، أطبقوا عليها أطباق الضواري ، وانهالوا على مساكنها وسكانها هدما وتخريبا ، وذبحا وتنكيلا ، فهوت تحت أقدامهم ركاما واكواما .

وما صمد أمام ذلكم السيل الجارف المنهمر من ناحية الشرق ، غير أولئك المماليك البواسل في عهد السلطانين قطز وبيبرس ، فانقذوا وادي النيل من الوقوع في براثن المغيرين ، وانتشلوه من مثل هذا المصير المروع .

وإلى جانب هذا الخطر المحدق من ناحية المغول ، كان ثمة اشاعات من غزوات أخرى يقوم بها الفرنجة . فكان من المتوقع أن تتجه أنظارهم إلى مصر ، وهي دائما هدف الفاتحين ، إلا أن الخطر الأعظم كان جاثما للمصريين قبل كل شيء وراء قفار سيناء ، من جانب مسلمي الشام المتحالفين مع الفرنج .. وذلك أن سلطان دمشق الملك الناصر صلاح الدين وهو حفيد صلاح الدين الكبير ، كان قد ورث عن ابيه ولاية حلب ، ثم اغتصب قلعة حمص ، وبعد ذلك انتهز فرصة غزو لويس التاسع لمصر وانشغال سلطانها بمحاربته ، فاستولى على دمشق سنة ١٢٥٠ . وما لبث أن تطلع إلى السيادة على سوريا كلها لعله يستطيع بذلك أن يمد سلطانه إلى مصر أيضا . فرأى أمراء المماليك في مصر أن يقضوا على الخطر من هذه الناحية أو على الأقل أن يخففوا من حدته وذلك بأن يعززوا قوة السلطان في ذلك الظرف الدقيق . فعقدوا مؤتمراً فيما

بينهم وقرروا بالاجماع أن يشركوا معه العرش طفلا لم يبلغ السادسة من عمره ، وهو الناصر أحد أمراء الأسرة الايوبية ولقب بالملك الأشرف ، وبذلك ضمنوا التفاف الأمراء جميعا حول العرش وأطاعتهم للجالس عليه — نظراً لأن المماليك كانوا لا يزالون يذكرون أن أمراء الأسرة الأيوبية هم أصحاب الحق الشرعي في حكم البلاد.

ومن ثم أصبحت جميع الأوامر الرسمية تصـــدر وتختم بالاسم المشترك للمعز والأشرف . ولكن الواقع أن الطفل لم يكن له في إدارة شؤن الدولة غير اسم اجوف وكانت السلطة في قبضة أيبك إلى أن قطع اسم الأشرف من الخطبة وأعتقل في قلعة الجبـــل .

وعلى الأثر أعد جيش لمقاتلة السوريين بقيادة الأمير فارس الدين أقطاى مقدم المماليك وظلوا في حربهم معه يتأرجحون زمناً طويلا بين الهزيمة والنصر، حتى تمكنوا في النهاية من طردهم . وأمنت مصر بذلك شراً وبيلا .

غير أن المماليك البحريين عادوا من ميدان القتال في سوريا منتفخى الأوداج يزهو النصر والكبرياء . . فما لبثوا أن عاثوا في البلاد نكراً وفسادا وراحوا يقترفون كل موبقة من الشغب والفوضى . فنهبوا وقتلوا وخطفوا النساء . . . وبالجملة أتوا كل صنوف البغى والاستبداد وعبثاً حاول السلطان كبح جماحهم . فنقلهم من ثكناتهم بالروضة وعزل الطفل الذى أجبر على مشاركته عرشه . فما كان منهم إلا أن عولوا على الانتقام وراحوا يتآمرون على حياته . وقد بدأ رئيسهم اقطاى يغتصب منه السلطة شيئاً فشيئاً ، ويظهرونه بمظهر الحاكم المطلق الذى لارقيب له ولا سند . ثم تزوج ابنة أمير حماه . وعند وصولها الى مصر استقبلها استقبالا رسمياً يفوق الوصف وأدخلها المدينة في حفل رائع وأبهة باذخة كانها ملكة تتهيأ لارتقاء العرش . وتمادى أقطاى في تبجحه ، فطلب من المعز أن يأذن له بأن يعيش مع عروسه في قلعة القاهرة وهى مقر السلاطين . ففاضت كأس عز الدين ، واستبد به الغضب والحنق حتى تراءى من ذلك الوقت ليقتنص علة يقتل بها أقطاى .

وقد فقد عز الدين كل سلطة على المماليك البحريه ، بل فقد كل هيبة واحترام

في نفوسهم . فكانوا يستخفون بأوامره ، ويهزؤون بأعماله . فلو أنه أراد الانعام بمنحة على شخص لا يمت اليهم منعوه من ذلك .

وكان أقطاى يئنذاك يجتذب اليه بالتدريج قلوب الجند ويستأثر بولائهم فأصبح ملتقاهم ومحاهم المختار فى يده ، ولا يدبر أمراً يعتزمونه بدون مشورته ، ولا ترسل مكاتبة أو تفض رسالة إلا بإذنه . وقد ظاهره امراء سوريا والعراق ، فتفاقم أمره وخطره ، وبدأ يتطلع صراحة إلى عرش السلطنة . . فما كان يظهر امام الناس إلا وحوله حرس قوى من الرجال المسلحين ، المتأهبين لتنفيذ أى امر يصدره . ومن ثم اشتد ساعد المماليك البحريين وازداد نفوذهم ، ففاقت جرأتهم ووقاحتهم كل حد ، وراحوا يستولون بالقوة على كل شيء يعجبهم ويخطفون النساء من أزواجهم والأطفال من امهاتهم ، ويدخلون إلى الحمامات العامة ويحملون من فيها من الفتيات والعذارى ، دون أن يجرأ احد على منعهم او مقاومتهم ...

وأخيراً عزم السلطان على تحرير نفسه من هذه الطغمة الباغية ، وتلك الفئة الخطيرة . فاستدعى أقطاى الى القلعة بحجة التداول معه فى بعض المسائل الهامة . فلم تساور هذا الأخير أى ريبة أو شك ، واتخذ طريقه نحو القلعة . وهناك مر من بوابتها واتجه نحو ايوان الأعمدة وهو الذى كانت تعقد فيه الاجتماعات الكبرى. وإذ توسط الدهليز المؤدى اليه ، أغلقت الأبواب من أمامه ومن خلفه ، وبرز له ثلاثة رجال انقضوا عليه ومزقوه بسيوفهم وسقط فى بركة من الدماء (٣ شعبان عام ٦٥٢ هـ)

فلما وصلت إلى المدينة أنباء مقتل إقطاى هرع زهاء سبعمائة رجل من أشياعه إلى القلعة وكانوا يمنون أنفسهم بأنه لم يقتل حقيقة . بل كل ما فى الأمر أنه معتقل وأنهم يستطيعون أن يحصلوا من المعز على أمر بإطلاق سراحه ، ولكن رأسه ألقى إليهم من أعلى الأسوار ، فتملكهم الرعب والاندهاش ، وهرولوا فى إضطراب وفزع ، وفروا من المدينة بعد أن أشعلوا النار فى جانب منها لكى يخفوا أمر فرارهم . وقد اعتقل السلطان كثيراً من زملائهم الذين بقوا فى القاهرة ، وقتل بعضهم وسجن البعض

الآخر ، وصادر أملاكهم وقبض على زوجاتهم وأولادهم وهـــدد بالموت كل من يساعد أو يخفي أحداً من البحريين ، ولأول مرة أصبح السلطان المعز هو السيد في مملكته .

وقد احتمى بعض الفارين بسلطان دمشق ، وبعضهم الآخر في الكرك ، وعاش آخرون كقطاع طرق في فلسطين ينهبون أراضي الفرنجة وأملاك المسلمين ، والتجأ منهم ألف وخمسمائة إلى علاء الدين سلطان الروم السلاجقة في قونية ، ولكن حيثما ذهب أولئك اللاجئون ،كانت تتبعهم خطابات المعز للتحذير منهم . فان المعز كتب مثلا إلى سلطان الروم يطلب إليه أن يحترس ممن لجأوا إلى بلاده من المماليك البحرية لأنهم رجال أدنياء مجرمون لم يخلصوا لعهدهم ولم يطيعوا مولاهم . وقال عنهم المعز في هذا الصدد : (فلو أنهم قطعوا على أنفسهم عهداً لنكثوه، ولو أنك أوليتهم ثقة لقابلوك بالخيانة والغدر ، فكن على حذر وإني لأخاف أن يقـــترفوا جرما في حقك . فالحق أقول أنهم قوم ملؤهم الرياء والكذب والخداع والمكر) .

فاضطرب سلطان الروم حينما بلغه ذلك أيما اضطراب ، وأرسل في طلب اللاجئين وسألهم عما يشكون من سيدهم . فتقدم أحدهم وقال : « يا مولاي . . من هو في رأيك سيدنا ؟ » فأجاب السلطان أنه (حاكم مصر الملك المعز) . فرد عليه: « ليحفظ الله حياة مولانا السلطان . لو أن الملك كتب إليك أنه سيدنا فهو مخطىء ، لأنه لم يكن إلا زميلا لنا ، ونحن الذين منحناه السلطان علينا بالرغم من أنه كان بيننا رجال أكثر منه خبرة وحنكة وأعلى منه مرتبة ، وأدرى بفنون القتال وأولى بالملك . وأما هو فجزاء لنا على صنيعنا سجن وقتل وأغرق معظم رجالنا .. ولكي ننجو من غضبه ونقمته فررنا مشتتين في بقاع الأرض . وها نحن أولاء قد أتينا لنلتمس الحماية والعون في ظل سموكم ونحن رهن أمركم » فسر السلطان من ذلك الجواب وابقاهم في خدمته .

أما المماليك البحريون الذين ظلوا في مصر بعد فرار زعمائهم ، فلم يكن في مقدورهم الحاق أي أذى بالمعز . ولكن هلاكه جاء على يد أقرب الناس إليه ..



احتفظت شجر الدر بقوتها قرابة أربع سنوات ، كانت خلالها تحكم مصر من خلف الستار وتتمتع بسلطة مطلقة دون أن تسمح لزوجها بنصيب كبـــير فى تدبير الأمور . غير أن الملك المعز فى النهاية تولاه الضجر من بقائه هكذا سلطانا بالاسم ، ومن خضوعه المستمر لرغبات إمرأة مستبدة . فثارت نفسه ووطد العزم على أن يلقى نير العبودية جانباً .

وكانت شجر الدر دائمة القسوة عليه ، دائبة على لومه والمن عليه ، بأنها هى التى رفعته إلى العرش . وقد أجبرته بغيرتها على تطليق زوجته الأولى أم ولده نور الدين بل بلغ بها الأمر أن منعته من رؤية ولده .

وإذ ذاك نشأ مقت مرير بين الزوجين . وزاد ناره اشتعالا تلك الخزعبلات الخرافية التى كان يزاولها كلاهما ويؤمن بفعلتها وقوتها . فقد كان للسلطان منجم دجال أسر إليه بأنه يقرأ فى صفحة طالعه أنه سوف يقتل بتدبير إمرأة . وتسلط الرجل على تفكير الملك حتى أثار مخاوفه وجسم له ذلك المصير الرهيب الذى ينتظـــره . وبطبيعة الحال لم يكن غير السلطانة فى تقدير الملك مصدراً اعظم للخطر . فاجتهد المعز فى الأخذ بأسباب الحذر . وانتقل من محل إقامته معها فى القلعة ، وأقام فى حى من أحياء القاهرة . ثم تعلل بأن السلطانة لم تنجب أولادا . فأرسل يطلب يد ابنة سلطان حماه . ولكن يظهر أن المفاوضات فى هذا السبيل لم تسفر عن شىء ، إلا أنه حين وصلت أنباء هذه الخطبة إلى علم السلطانة أكلتها الغيرة واستبد بها الغضب . فلكى ترد للسلطان كيده ، بعثت رسولا إلى الملك الناصر يوسف سلطان حماه تخطره

بأنها عزمت على أن تفك عقدتها بالمعز لأنها فكرت في الزواج من الملك الناصر وأنها سترفعه إلى عرش مصر ، وقد ارتاب في الأمر وخاف من الغدر . لم يجب على رسالتها .

وسرت الاشاعات عن المفاوضات الدائرة ، فكتب بدر الدين لؤلؤ إلى السلطان ليحترس من شجر الدر ، إذ أن ثمة اتفاقا سريا بينهما وبين أمير حماة . فصمم السلطان على ابعادها عن القلعة واعتقالها ، بل وقتلها ... ولكى يحول دون أى مقاومة ممكنة أو معارضة فى زواجه ، قبض على عدد كبير من المماليك البحريين الذين كانوا دائماً من أنصارها المخلصين .

وأرسل المعتقلون الى القلعة . . وبينما كانوا يدخلونها الى الفناء الكبير تعمد بعضهم أن يقترب من إحدى المشربيات ، وكانوا يعلمون أنها المكان المحبب لشجر الدر وتقدم أحدهم وخاطبها فى احترام عميق — باللغة التركية — قائلا : « هو عبدك ايبيكين الذى يتكلم ، فبإسم الخالق أى مولاتى (ياكافندة) : نحن لا نعلم أى ذنب جنينا ولا بأى جريرة سجنا ، ألا يكون ذلك لأننا — حين طلب المعز أيبك يد أميرة الموصل — لم نرض بهذا من أجلك ، بل رفضناه واستهجناه لأنك أنت أصل نعمتنا ونحن ندين بكل شىء لكرمك وجودك وفضل زوجك نجم الدين . لذلك يكرهنا المعز وينقم علينا ويسومنا العذاب كما ترين . . . »

وحينما أوصدوا أبواب السجن على أيبك وزملائه قال لهم . « إذا كان المعز قد سجننا فاننا سنقتله ... » .

ورأت السلطانة أنه ليس ثمة إلا اجراء سريع ينقذها ، فأرسلت الى صفى الدين مرزوق أمين خزانة السلطان تسأله المشورة ، ووعدته منصب الوزارة لو أنه ساعدها ولكنه حاول بحرارة واخلاص أن يثنيها عن عزمها . ولا بد أنها لم تفض اليه بكل تدبيرها وإلا لكان قد بادر بتحذير السلطان مما أعدت له .

فلما يئست السلطانة من مساعدة صفى الدين ، استدعت أحد المماليك — وهو

الخصي محسن الصالحي — وبعد أن خدر فكره وضميره بالوعود الخلابة ، رضي أن ينفذ لها تدبيرها ... بمكيدة غادرة ... فتسابق الزوجان في الخديعة ولكن انتصرت المرأة ! لانت شجر الدر لين الأفعى الملساء ، فبعثت الى المعز رسالة تناشده فيها أن يدعها تراه وضربت له ميعادا . . »

تداعت عزيمة الرجل أمام اغراء حواء ، فخدعته الكلمات المعسولة . .

وكان يلعب كرة الصولجان مع بعض رجال حاشيته ، فلما اكفهر وجه الشمس عند الغروب امتطى صهوة جواده وتهادى به الهوينى متجها الى القلعة . . وعليه أمارات النشوة والسرور .

وهناك دلف الى الطريق المظلم الذى يمتد صاعدا بين الصخور من ميدان الرميلة إلى القلعة ، وكانت القاهرة فى أسفل المرتفع نائمة فى هدأة الليل ، وغارقة فى سكون عميق ، وقد أوى الناس الى بيوتهم وأخلدوا الى الراحة والصمت .

وكان المدخل من الرميلة . . هو باب العزب . وله مصراعان ضخمان من الخشب المزدوج السميك والمصفح بكتل الحديد ولا تربطهما بالجدران مفصلات كالأبواب الحديثة وانما ترتكزان على أسياخ رفيعة من الحديد مثبتة فى صارية متينة من البلوط ، وتدار على مدار تجويفين فى أعلى وفى أسفل محفورين فى كتلتين من الجرانيت .

فما ولج السلطان حتى تحرك فجأة هذان المصراعان وأغلق الباب من خلفه فوقع الشق فى الفخ .

وظل مدلجا بجواده وقد ادلهم ظلام الليل ، فى ذلك الطريق المنحدر حتى بلغ القلعة ، وهناك ترجل ودلف نحو القصر واتجه إلى الحمام ... فماذا حدث له ؟ .

بوغت المسكين بأربعة من السفاحين انقضوا عليه دفعة واحدة . : . فانتزعوا روحه ، ويضفى مؤرخو العرب على تلك الصورة المروعة من تفاصيل ما يزيدها

روعة وبشاعة فيروون أن شجر الدر كانت متوارية خلف الحمام تنصت إلى ما يحدث :

فسمعت زوجها وهو فى أيدى أولئك الوحوش يصرخ بألم عظيم ، ويستنجد بها فى ضراعة تفتت القلوب ويناشد اسمها بأعذب الكلمات ، فطغى على قلبها التأثر واندفعت الى الداخل صائحة فى القتلة أن يكفوا أيديهم عن زوجها . ولكن أجابها رئيسهم فى خشونه ان « قد انقضى الأمر » فانهم إذ تركوه الآن « فهو لن يتركهم ولن يتركها هى أيضا » وذبحوه أمامها وعيناه الضارعتان عالقتان بعينيها ..

(٦٥٥ هـ — ١٢٥٧)

وأرسلت الأوامر — كأنما صدرت من السلطان — الى نائبه سيف الدين مرزوق ليحضر حالا إلى القلعة ، فلما دخل إلى السراى رأى السلطانه جالسة وأمامها جثة زوجها فانقض على قلبه رعب هائل ولما أخبرته بما حدث وسألته المشورة أجاب فى حيرة أنه لا يعرف ماذا يقول . وأنها أوقعت نفسها فى مخاطرة مخيفة لا يمكن أن ينجيها من عاقبتها شىء ..

وبذلت المساعى لاغراء أحد الأمراء بانقاذ الموقف ، ولكن بدون جدوى . واخيراً بعثت شجر الدر باصبع السلطان ومازال فيه خاتم الملك إلى عز الدين الحلبى مع رسالة تقول له « أنهض وارتق عرش السلطانة » ولكنه لم يقبل أن يزج بنفسه فى هذه المخاطرة .

وعندما انبلج الفجر وصلت أنبــاء موت السلطان إلى المدينة ، فعم الفزع والاضطراب وتبلبلت خواطر الناس ارتياعا مما عساه أن يحدث عقب ذلك . ونزل رسول من القلعة ليستدعى النائحات لكى يبكين على المعز « الذى مات فجأة أثناء الليل » ولكن لم تنطل هـذه الفرية على أحـد وأسرع جمع غفير من المواطنين والجنود نحو القلعة واعترضوا سبيل كل من خرج منها . وشقوا طريقهم إلى القصر وكان على رأسهم الأمير على الدين سنجر ، وهـــو أقوى ضباط المماليك البحرية . فقبضوا على العبيد والجوارى وأخذوا فى تعذيبهم حتى اغتصبوا من افواههم الأعتراف بالحقيقة .

ولكن السلطانة برهنت مرة أخـــرى على جبروت نفسها ، وعلى روحها التى

لا تقهر . فلما رأت أن كل شيء قد ضاع ، سارعت — قبل أن يمسكوها هي الأخرى — إلى الكنوز المثقلة بجوهراتها ولآلئها فدفنتها في جوف الأرض حتى لا تصل اليها يد الأعداء ، وكان عبيد المعز يبحثون عنها إذا ذاك ليقتلوها شرقتله ، لولا أن البحريين — لكي ينقذوها من انتقامهم — اخفوها في أحد بروج القلعة .

وكان من الممكن أن تنجو من الموت ، لأن خدماتها للدولة كانت لا تقدر ولا تنسى ولان البحريين كانوا يمقتون المعز ، وكان بعضهم بلا شك شريكا في اغتياله ، ولكن شجر الدر جلبت على نفسها كراهية أمراة أوردتها موارد الهلاك . — تلك هي الزوجة الأولى للمعز التي اجبرته على تطليقها ، وتلك عند النساء جريمة لا يتسنى معها صفح ولا مغفرة .

وانتخب على ابن معز الدين سلطانا[1] ، مع انه لم يبلغ الاحدى عشرة ، وعين الأمير سيف الدين قطز ، أتابكاله ، وأعيدت أمه وهي الزوجة الأولى للمعز ، إلى القلعة بين مظاهر التعزيز والاجلال . وقد أحنى الناس جميعـــا رؤوسهم أمام والدة السلطان . فلما استقرت في القصر أمرت باحضار شجـــر الدر في حضرتها واهانتها وضربتها ، ثم سلمتها للجواري اللاتي أخذتها وظللن يهوين عليها في قسوة بقباقيب الحمام حتى قضت نحبها ، وانطفأ ذلك السراج الذي أضاء في مصر زمنا .

لقد أدارت شجر الدر دفة الحكم في مصر في جو عاصف مثقل بالمصاعب الخطيرة والمصائب الجائحة ، فوصلت بأمتها إلى شاطيء السلام ، في قدرة ونجاح ، وكانت من النساء القليلات اللاتي استطعن أن يحكمن شعباً إسلامياً في ربوع الشرق . فبالرغم من أن كثيراً من السلطانات العثمانيات كن على جانب كبير من السطوة والنفوذ ، فانهن لم يكن يتمتعن أبداً بمثل تلك السلطة المطلقة التي كانت لشجر الدر .

ومن هاتيك السلطانات ، ثلاث لعبن دورا عظيما في التاريخ التركي . فأولاهن كريم زوجة السلطان سليمان الأكبر ، وقد كانت جارية روسية ، وكان لها عليه تأثير

---

١ — لقب بالملك المنصور .

قوى إلى آخر حياتها ، حتى أنها حرضته مرة على إبنه الأكبر ، وهو وارث العرش فأطاعها وقتله . وقد ظل نفوذها عليه طاغيا — حتى بعد أن ذهبت فتنة طلعتها — بما كانت تمتاز به من الكياسة والدهاء .

وكذلك كانت السلطانة صفية ، زوجة مراد الثالث ، تتمتع — باعتبارها عشيقة السلطان ووالدة ولى عهده — بقوة وسطوة عظيمتين ، فحكمت الامبراطورية العثمانية زهاء ثمان وعشرين سنة ، منها عشرون بوصفها زوجة السلطان وثمان بوصفها وصية على إبنه الصغير وهو محمد الثالث ، وكانت صفية جارية أصلها من أسرة نبيلة فى البندقية .

غير أن شخصية السلطانة كيسيم قد تكون أقرب إلى ما اتصفت به شجر الدر وهى جارية يونانية استحوذت على قلب السلطان أحمد الأول ، فاختصها ، دون غيرها ، بالعشق والتدله واتخذها زوجة له فكان لها عليه أبلغ الأثر . ثم بعد وفاته أقيمت وصية على خلفه — وهو ابنها الصغير مراد الرابع ، فظلت السلطنة فى قبضة يدها خمس سنوات — وأما مراد الرابع هذا فهو نيرون التاريخ العثمانى ، وعهده كان أكثر العهود إرهاباً ورعباً وتلطخاً بالدماء .. حتى أن العقل لينذهل والبدن يقشعر من هول وحشيته وقسوة قلبه ، فلما توفى عام ١٦٣٧ إعتلى العرش إبنها الثانى ابراهيم بعد أن أخرج من السجن الذى كان أخوه قد أمر بالقائه فيه . وللمرة الثانية استدعيت كيسيم لتكون وصية على السلطان ، إلا أنه ... ولو أن أمه حكمت باسمه ما يزيد على عشرة أعوام — قد أثار عليه السخط والكراهية بسبب إسرافه ومفاسده .. فحكم عليه بالموت وقتل . وعبثاً حاولت السلطانه ان تنقذه وجاهدت فى هذا السبيل بكل ما أوتيت من قوة وحول وقد اقترحت أن يبقوا على حياته على ألا يسمح له بالحكم . إلا تحت الملاحظة الشديدة من العلماء والوزراء . ولكن طريقة الحكم الفردى الاستبدادى فى الدولة العثمانية لم تكن لتتفق مع ذلك الوضع ، فقضوا على السلطان ، وأجلسوا على العرش بعده حفيد السلطانة ، محمد الرابع ، وكان لا يتجاوز التاسعة من عمره . ومرة ثالثة طلب من كيسيم أن تحكم باسم السلطان الصغير . فيالها من ثقة عجيبة فى إمرأة بين شعب شرقى !! ..

ولكن الدسائس بدأت تدبر ضدها فى السنوات الأخيرة من حياتها ، وأخذت سلطتها فى التضاءل أمام سحر عينى الغادة الروسية الجميلة تارشان ، التى غزت بنضارتها وفتنة دلالها . . قلب السلطان . . فتزوجها وأحلها من نفسه محل جدته العجوز . . وأخيراً وقفت كيسيم فى اجتماع رسمى كبير وكانت جالسة عن يمين السلطان ، وقالت فى جسارة وجلال « لقد خدمت أمتى باخلاص فكان جزائى الكره والاضطهاد ، بل التهديد بالموت وعشت فى سبعة عهود ، فتمتعت طويلا بالسلطان والجاه ، وقد تعبت من السلطان ، وكان هذا آخر عهدها . وفى النهاية اتهمت تهمة باطلة بتسميم حفيدها وكان يحيط بها زمرة من الدساسين الذين كانوا يملؤون البلاط العثمانى على الدوام ، فنكل بها وقتلت . .

إلا أنه ، مع ما كانت عليه السلطانة التركية من القدرة والوطنية ، فان الفرصة لم تسنح لها لتلعب ذلك الدور العظيم الذى لعبته شجر الدر . فهى حقاً كانت تحكم مثل شجر الدر ولكنها لم تتول الملك ، ولا بلغت أبداً مثل ما بلغته ، من ذكر الخطبة باسمها فى المساجد وفى الصلوات العامة ، وصك إسمها على نقود الدولة .

وقد كان موت كسيم فاجعاً كموت نظيرتها المصرية .

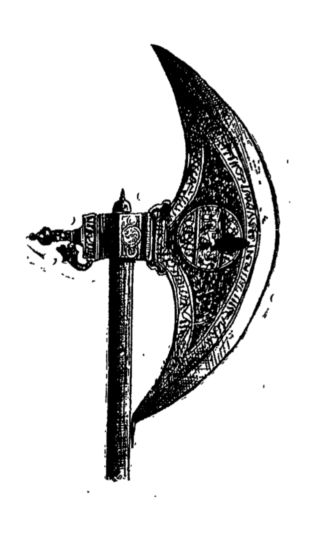
* * *

قتلت شجر الدر وألقيت جثتها نصف عارية من أعلى أسوار القلعة إلى أسفل الحصن وهناك بقيت عدة أيام فى العراء دون أن يتقدم إلى دفنها أحد . ثم أخيراً حملوها فى قفص إلى الضريح الذى أعدته لنفسها بقرب المشهد النفيسى ، ومن ثم ووريت التراب من غير احتفال ولا طقوس .

أما قاتلو السلطان ، فقد مثل بهم أشنع تمثيل .. وعلق زعيمهم محسن مشنوقا على باب القلعة ، ومثل بأربعين من خصيان القصر المتآمرين أبشع تمثيل .

وكان قطز يعمل منذ تعيينه أتابكا للمنصور على اغتصاب الملك منه ، فاستغل الفرصة وأعلن أنه صغير السن وأنه لا يحسن تدبير أمور مصر فى ذلك الوقت المضطرب الذى يحتاج إلى وجود سلطان يتمكن من قتال المغول وردهم عن مصر .

فقبض عليه قطز واعتقله بالقلعة ، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر عام (٦٥٧ هـ — ١٢٥٩ م) . ولما أنكر الأمراء على قطز هذا العمل ، أجابهم قائلا : « إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم » (١) .



(١) — أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠



أرسل هولاكو زعيم المغول فى أوئل عام ١٢٦٠ م خطاباً هدد فيه سلطان مصر إذا إمتنعوا عن التسليم إليه ، فكان رد قطز أن آمر بقتل الرسل الذين حملوا إليه الخطاب ، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة ، ثم جمع أمراءه للمشاورة فى الأمر ، وقد أحدق الخطر بمصر فقر القرار على القتال ، وألا ينتظروا تقدم المغول إلى البلاد .

خرج « قطز » السلطان الشاب على رأس جيش مصر من قلعة الجبل ومر بالصالحية فى الشرقية ثم بلغ حدود فلسطين قبل أن يقوم المغول بتجميع قواتهم ، فاضطر قائدهم بيدر إلى التخلى عن غزة ، فاحتلها القائد بيبرس ، وتقدم متجنباً التلال مساحلا إلى يافا وقيصرية ، إلى أن وصل جنوبى حيفا وعسكر الجيش قرب عكا التى كانت فى قبضة الصليبيين ، وكانت خطة بيبرس فى تلك المعركة تقليداً لأسلوب المغول أنفسهم فى القتال ، ولا سيما أسلوب التظاهر بالفرار . وقد رأى هذان القائدان أن وجود المستنقعات حول بلدة بيسان سيضطر المغول للتحول فى تقدمهم صوب الجنوبى الغربى وأنهم لا بد نتيجة لذلك أن يصطدموا بالقسم الآخر من خطوط المصريين فدبروا خدعة باهرة تقضى بانسحاب القسم الذى يشتبك به أولا متظاهرا بترك ثغرة فى جبهة الجيش المصرى فيندفع فيها المغول اندفاعهم المعهود ، وبعد أن يتورطوا فى الاختراق إلى مسافة كافية يطبق عليهم المصريون من جهات ثلاث .

بدأت المعركة فى صباح يوم الجمعة (شعبان ٦٥٨ هـ — ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م) ، وتوقع قطز هجوما عنيفاً يقوم به المغول على يسار الجبهة ، فتظاهر المشاة بالفرار منهزمين ، فحدثت ثغرة اندفع فيها المغول بقوة ، فتركهم المصريون حتى وصلوا فيها

مسافة مناسبة ثم أطبقوا عليهم وانقض السلطان بفرسانه المختارة من فرقة الملك الصالح خلال قرع الطبول كأنها الرعد القاصف .

وفى أثناء ذلك عاد المتظاهرون بالفرار من المشاة ، واشتركوا فى القتال بعزم صادق . واستمرت المعركة عنيفة من الصباح حتى منتصف اليوم ، وانتهت بهزيمة المغول ، وقتل قائدهم كيبتافوين . وقد قتله بطعنة واحدة أمير من أمراء مصر ، هو جمال الدين أقوش الشيمى ثم قام فرسان بيبرس على الأثر بمطاردة المغـــول حتى أخرجوهم من سوريا .

ولم تكن تلك الهزيمة هى الأخيرة للتتار على يد المصريين ، بل لقد اصطدمت بهم فى معارك شتى جحافل مصر وهزمتهم فيما بعد على أيدى بيبرس وقلاوون . وكان انتصار مصر فى عين جالوت منقذا للمدنية الاسلامية وللعالم أجمع من فظائـــع المغول ، ودرسا للصليبيين الذين كانت بقايا حياتهم قابعة فى بعض قلاع الساحل السورى .

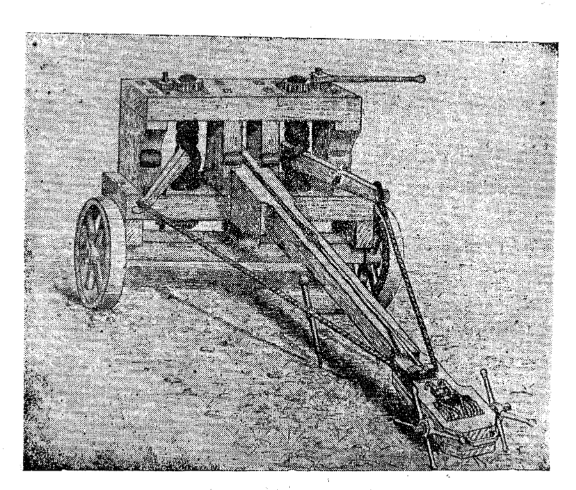
لكن لم ينعم قطز طويلا بهذا النصر الحاسم . فلم يكد يصل إلى الصالحية عائدا مزهواً حتى تمت مكيدة قتله بسيف القائد بيبرس ومماليكه وتركوه جثة هامدة ..

وهكذا ختمت حياة بطل عظيم .. ثم خلفه بيبرس على عرش البلاد (عام ٦٥٨هـ — ١٢٦٠)

ويعود الفضل لأسرة المماليك البحرية ونخص بالذكر : — بيبرس وقلاوون وخليل — فى طرد الصليبيين ، فأشعلوها حرباً تكاد أن لا تنقطع دامت إحدى وأربعين سنة ضد الولايات الصليبية فى فلسطين وسورية . فكانت قلاع الصليبيين تسقط واحدة تلو الأخرى فى حوزة المماليك ، حتى لم يبق منها إلا عـكا ، وبعض المدن المجاورة على الساحل . ثم سقطت عكا ذاتها فى مايو ١٢٩١ م إذ دخلها السلطان خليل (١٢٩٠ — ١٣٩٣ م) عنوة بعد حصار لم يدم أكـــثر من شهرين ، وأعقبها سقوط المدن الأخرى الى أن تلاشت دولة الصليبيين فى سوريا .

ومع ذلك فان قوات صليبية ظلت رابضة شرقى البحر المتوسط فى جزيرة رودس وقبرص ، ولم تغب فكرة الاستيلاء على مصر عن بال زعماء أوروبا . وكانت تلك القوات تقوم بين كل الحين والآخر بغزوات ضد الموانىء السورية والمصرية ، ولكنها انتهت بغزو قوات الأشرف برسباى على أهم وكر للصليبيين فى جزيرة قبرص فاستولى عليها وأسر ملكها لوزينيان .

وكانت تلك الغزوة خاتمة أعمال سلاطين المماليك ضد الصليبيين الذين تبددت أحلامهم وتلاشت فى الاستيلاء على وادى النيل .



منجنيق لقذف الأحجار

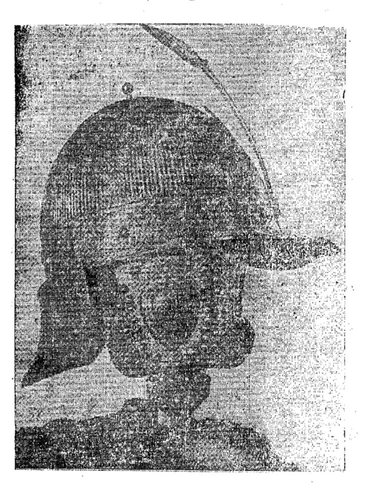
الفصل الرابع

القوات المسلحة

جيوش صلاح الدين — الجيش المصرى — القوات الشامية والعراقية — حمص — حماه — حلب — الموصل والجزيرة — القوات المعاونة — التركمان — الأكراد — العرب — المشاة — المعدات والمؤن — المماليك البحرية — الأسلحة المعاصرة — السلاح الاسلامى — المنجنيق — الدبابة — الأسطول — تحصين الثغور البحرية والقلاع — القلاع والحصون — أسوار القاهرة — قلعة الجبل — قلعة بصرى — قلعة دمشق — قلعة جبل طابور — قلعة حلب — قلعة النجم — قلعة الروضة (الجزيرة) قوات الصليبيين المسلحة — أسلحة الحصار — حصون الصليبيين وقلاعهم — الأسطول الصليبى

القوات المسلحة

أسهمت جيوش الأيوبيين سواء فى البر أو فى البحر بعبء كبير فى قتال الحملات الصليبية فى سورية ومصر وشبه الجزيرة العربية وذلك فى حوالى قرن من الزمان، ثم قامت دولة المماليك البحرية المصرية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بالقضاء على دولتهم فى سورية. ولذلك رأينا أن نتكلم فى هذا الفصل عن أهم مرحلة مرت بها تلك الجيوش، وهى مرحلة عصر صلاح الدين.



خوذة من المعدن

جيوش صلاح الدين

تألفت جيوش صلاح الدين من العناصر الرئيسية الآتية :

١ — الجيش المصرى .

فى حملة شيركوه الثالثة على مصر (١) منحه نور الدين عطية قدرها مائتا الف دينار فضلا عن الأسلحة والدواب ، وسمح له باختيار ألفى مقاتل من جيشه النظامى (العسكر) وأعطى لكل من هؤلاء هبة خاصة قدرها عشرون دينارا للانفاق على التجهيز للحمله فاستأجر شيركوه بمنحته ستة آلاف فارس من التركمان ولعلهم كانوا من قبيلة الباروقى ، ذلك لأن قائدهم كان عين الدولة الياروقى (٢) فاكتمل لشيركوه ثمانية آلاف فارس ، ضم اليهم ما كان يحتفظ به من رجاله المقاتلين باعتباره أمير اقطاع حمص ، وقد بلغ عدد هؤلاء خمسمائة رجل من المماليك والأكراد (٣) ومن المحتمل أنه كان إلى جانبهم عدد آخر من القوات المساعدة .

وبعد امتلاكه مصر وزع الأراضى اقطاعيات بين الجنود النظاميين (العسكر) الذين جاءوا معه مع المحافظة فى نفس الوقت على الحقوق القائمة للضباط المصريين فى الجيش الفاطمى .

فلما تعين صلاح الدين خلفا لشيركوه انسحب التركمان ومعهم كثير من أمراء نور الدين الأتراك مع قواتهم ومن جهة أخرى ظل فى خدمته جنود شيركوه من « الأسدية » والأكراد .

ولم تنقض سنة حتى كان صلاح الدين قد أنشأ قوة الحرس الشخصى أطلق عليه اسم « الصلاحية » بقيادة « أبو الهيجاء » (٤) وعلى الرغم من تخفيض عدد

---

١ — انظر التعليقات فى آخر هذا الفصل .

قواته ، فقد بدأ فى أجلاء الضباط المصريين عن اقطاعياتهم ليمنحها لمن ظل معه فى القوات . وقد تزايد عدد جيشه باطراد خلال السنوات الخمس المتتالية سواء بمن ضم من الرجال إلى وحداته هو او إلى وحدات امرائه حتى اذا سار توران شاه فى حملته إلى اليمن استطاع صلاح الدين أن يمده بحملة عدتها ألف فارس وقوات أخرى (٥) .

وليس فيما تحت يدنا من المصادر تفاصيل (٦) عن توزيع واقطاع القوات أو اقطاعات صلاح الدين نفسه الذى آلت اليه اقطاعات الوزراء المصريين وايرادهم وكل ما لدينا من بيانات لا يتصل الا بالاقطاعات التى اقطعت لأفراد أسرته . فعند وصول أبيه إلى مصر سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠) م أقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة . وفى نفس الوقت أقطع أخاه تورانشاه جنوب الصعيد (قوص وأسوان وعيذاب) وكانت قيمته تبلغ ٢٦٦٠٠ دينار ، وبعد بضعة شهور أضاف اليه بوش واقليم الجيزة وسمنود فلما وصل ابن أخيه تقى الدين عمر ٥٦٧ هـ (١١٧٢) م مصحوبا بجيشه الخاص وبخمسمائة مقاتل أخذت رواتبهم من إيرادات البحيرة .

ويتضح من كلام المؤرخ ابن الأثير ان النظام الاقطاعى فى أيام نور الدين كان وراثيا وأنه كان هناك سجل يحوى عدد الرجال والسلاح الذى يلتزم بتقديمه كل تابع ويبدو أن نظام صلاح الدين لم يكن يختلف عنه فى شىء . فقد كان لكل من الأمراء والضباط الكبار اقطاع . أما مماليكهم فكانوا يستلمون جامكيتهم أو راتب نفقتهم ، أو تخصص لهم اقطاعات أو أنصبة فى اقطاع ونفقة أى تعيين وعليق عينى أما الجند الذين لم يكونوا مدونين فى سجل العطاء فكانوا يسمون « البطالين » .

ولم يكن صاحب الاقطاع (المقطع) يتمتع بكل إيراد إقطاعه إلا بإذن خاص وهكذا عندما عين تقى الدين نائبا للسلطان فى مصر عام ٥٧٩ هـ (١١٨٣) م أقطع الاسكندرية ودمياط غير أنه أعطى بجانب ذلك البحيرة والفيوم وبوش خاصة له ويمكننا بأن نخلص من المراجع المتفرقة إلى أن المقطع كان مسئولا عن الاشراف على زراعة الأرض وريها وصيانة الجسور والاشراف على جمع الخراج نقدا أو عينا

على كل محصول (٦) ولم يذكر متى كان يجمع ما تحدد له هو من دخل نقدى أو عينى . إذا صح أنه كان يفعل ذلك وعلى عكس ما جاء بعدهم من أصحاب الاقطاعات كان كل مقطع يشرف بنفسه على جمع المحصول فى الربيع ، وقد اختير موعد المؤامرة الفاطمية فى ابريل ١١٧٤ م فى الوقت الذى كان فيه العسكر متفرقين شذر مذر فى اقطاعاتهم عند اقتراب ميعاد جمع المحصول وليس فى القاهرة منهم الا القليل (٧) ولما هاجم أسطول صقلية الاسكندرية فى نهاية شهر يوليو من نفس السنة جاء المدد السريع للمدافعين عن المدينة من أولئك المقاتلين الذين كانوا فى ذلك الحين فى اقطاعاتهم بمقربة من الاسكندرية .

وقد جاء فى نبذة موجزة ملحقة بكتاب ابن مماتى (ص ٣٦٩) بيانا بالرواتب النقدية والعينية لكل فئة من الجنود وذلك على أساس القيمة المقدرة لكل اقطاع ، وقد كان التقدير بنوع من العملة اسمه « دينار الجندى » وكان يدفع للنظاميين من الأتراك والأكراد والتركمان رواتب كاملة ، أما الفئة التى تلى هؤلاء فتؤلف من الكنانية (٨) ثم العساقلة (من عسقلان) ومن شاكلهم فى سجلات الفاطميين وقد تخصص لهذه الفئة نصف الرواتب (٩) كانت الفئة الثالثة تتألف من جنود البحر والقواد (؟) ويدفع لهم ربع الرواتب وأخيرا يأتى الجنود المساعدة من العرب وكان يدفع لهؤلاء ثمن الرواتب ومع شيء من الاستثناء ، والمقصود من الاصطلاح « الرواتب الكاملة » هو ما يخصص للقوات من عطاء أى بمعدل دينار جندى لأردب واحد من الحبوب : ثلثا أردب من القمح وثلث أردب من الشعير أما الروابط المخصصة على الخزانة فكانت تحتسب على أساس ربع دينار نقدا عن كل دينار جندى كتسوية متفق عليها إلا أن البعض كان يخصص له ثلثا دينار أو ثلث دينار نقدا حسبما يؤمر به عن كل حالة ويبدو من هذا أن كل مقاتل نظامى كان يتلقى جزءا من مخصصاته نقداً ، لا يقل بحالة من الأحوال عن ربع القيمة المقدرة لاقطاعه وراتباً من الحبوب بواقع أردب عن كل دينار من القيمة المقدرة ، أما الفئات الأدنى فكان راتبها من الحبوب أقل من ذلك غير أننا لا نستطيع أن نستخلص مما ذكر شيئاً يتعلق براتبهم النقدى (١٠) .

وقد احتفظ المقريزى بسجلين من مذكرات القاضى الفاضل المتجددات وبها أرقام عن الجيش المصرى فى عهد صلاح الدين (١١) وقد جاء فى السجل الأول أنه فى اليوم الثامن من شهر محرم سنة ٥٦٧ هـ (١١ سبتمبر ١١٧١) عرض صلاح الدين قواته القديم منها والجديد ، بحضور رسل الروم والفرنج وكان مجموع قوات العرض ١٧٤ طلباً وغاب عشرون طلباً . والطلب فى لغة الفن هو وحدة تتألف من ضابط له مفغور وطبل مسموع وعدد من الفرسان يتراوح بين مائتين وبين مائة أو سبعين ويبلغ مجموع هؤلاء الفرسان نحو ١٤٠٠٠ جلهم من الطواشية (١٢) والباقى من القراغلايين (؟) وفى نفس الوقت اشترك فى العرض غرب جدهم الذين فى خدمة صلاح الدين وكانت عدتهم سبعمائة فارس إلا ان عددهم كان محدداً بـ ١٣٠٠ فارس لا أكثر .

وأن قوة عسكرية بهذا القدر لا بد وأن تكون قد استنزفت موارد مصر مما دعا نور الدين إلى الشكوى من أنه لم يتلق من مصر أية مساهمة فى نفقات الجهات فأوفد مبعوثا لمراجعة حسابات صلاح الدين ، وقد اتخذ صلاح الدين بنفسه خطوات نحو تخفيض هذا العدد ، فأرسل مدداً كبيراً إلى اليمن كما لاحظنا من قبل عام ١١٧٤ وفى عام ١١٧٧ أوقف أرزاق كثير من الأكراد محملا إياهم مسئولية كارثة جبل جيسار وأخيراً حدد فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) عدد القوات النظامية فى مصر كما تأتى فى السجل الثانى من مذكرات القاضى الفاضل تحدد عدد القوات ب ٨٦٤٠ منهم ١١١ أميراً و ٦٩٧٦ من الطواشى و ١١٥٣ قره غلاما وبلغ مجموع ما تخصص لهم ٣٦٧٠٦٠٠ دينار (١٣) ولا تشمل هذه الأرقام القوات التى لم تعين لها إقطاعات وقيدت فى سجل المخصصات من العشر ولا تشمل أيضا العرب المقطعين فى الشرقيــة والبحيرة ولا الكنانيين ولا القوات المصرية (الفاطمية) والقضاة والصوفيين ورجال الديوان ويبلغ كل ذلك ما لا يقل عن مليون دينار .

ويلى هذه الفقرة فى كتاب الخطط قطعة أخرى من المذكرات تشمــل تفاصيل الإيراد والمصروف فى شعبان ٥٨٥ هـ (أكتوبر ١١٨٩) وقد بلغ مجموع المخصصات ٤٦٥٣٠١٩ ديناراً منها ١١٩٠٩٢٣ تحددت لأغراض معينة ، أما البــاقى وقدره

٣٤٦٢٩٢٣ فقد كان مخصصاً للقوات النظامية ، وقد تخصص من المبلغ الأول منهما ٨٢٨٢٤٨ ديناراً لديوان العدل و١٥٨٢٠٣ دينارات للأمراء والجنود الذين تقع إقطاعاتهم خارج الأقاليم المسجلة و ١٣٨٠٤ لبناء أسوار القـاهرة و ٢٣٤٢٩٦ للعرب و ٢٥٤١٢ للكنانية و٧٤٠٣ للقضاة والشيوخ و ١٢٥٤٠ دينارا للقوات القيمرية والصالحية والمصرية و١٠٧٢٥ للغزويين والعساقلة (من عسقلان) المعسكرين بدمياط وتنيس وغيرهما .

ولكى لا يتبادر إلى الذهن أن صلاح الدين استطاع استخدام كل الجيش المصرى فى حروبه بالشام فان ظروف ولايته على مصر وما أعقبها من حملات صليبية بحرية أقنعته بأن الفرنج لم يقطعوا الأمل فى الاستيلاء على مصر بهجوم مفاجىء ، ولذلك لم يكن فى الوسع إعفاء أكثر من نصف القوات المصرية من واجب حماية البلاد . والمرة الوحيدة التى يبدو فيها أن صلاح الدين قاد الجانب الأكبر من الجيش المصرى إلى الشام كان فى حملته إلى الرملة ١١٧٧ م غير أن كارثة جبل جيسار (Mont giasrd) شددت من عزمه على أن لا يعود لتلك المجازفة ، ويقدر عدد فرسانه فى حملته الأولى بالشام بعد أحتلال دمشق بستة آلاف فارس ، ولما كان هذا الرقم يشمل عسكر دمشق وحرسه الخاص فيتسنى تقدير القوات المصرية بما لا يزيد عن أربعة آلاف (١٤) ، ويقول المؤرخ المعاصر عماد الدين أن صلاح الدين عند ما قام من مصر ٥٧٧ هـ (١١٨٢) أخذ معه نصف العسكر وترك النصف الباقى لحماية الحدود ، ويؤيد هذا عدد قوات المسلمين فى معركة حطين كما يتضح فيما بعد ، وقد كان لهذه السياسة فائدة أخرى ، ذلك أنها جعلت فى إمكان صلاح الدين أن يجىء إلى الميدان بإمداد جديدة من الجند وأن يعيد إلى مصر من أضناهم الجهاد للراحة والاستجمام .

القوات الشامية والعراقية

هى العناصر الثانية من قوات صلاح الدين . فقد أضاف صلاح الدين تدريجاً عسكر أمراء الشام والعراق إلى ما تكون لديه من نواة مصرية للقوات العسكرية وتقدر تلك القوات كما يلى :

دمشق

بعد وفاة السلطان نور الدين تفرقت قواته الاقطاعية بين دمشق وحلب وبعض الامارات الصغرى مثل حمص وحماه وحران وغيرها ، ويلوح أنه لم يرد أى ذكر فى المصادر الموجوده الآن عن مجموع قوة عسكر نور الدين ولكن من المرجع أن يكون الجانب الأكبر منها (ربما يبلغ الثلثين على وجه التخمين) انضم إلى الملك الصالح ، بحلب أما من ظل فى دمشق فقد وضعوا تحت قيادة شمس الدين بن المقدم (قائد نور الدين) الذى أقطع أيضا بعلبك ، وعندما تمرد ابن المقدم بسبب رغبة توران‌شاه فى استخلاص بعلبك لنفسه عين صلاح الدين ابن أخيه فروخ شاه قائدا على عسكر دمشق وأوفده على رأسه لملاقاة الفرنج المتقدمة بقيادة همفرى أوف تورين ٥٧٤هـ/١١٧٨ م ، وقد جاء فى خطاب القاضى الفاضل عن النصر الذى أحرزه فروخ شاه فى هذه الموقعة أن عدد قواته لم يكن يتجاوز الالف ، ولما كانت قوات ابن المقدم مشغولة بالتأكيد فى ذلك الوقت بالدفاع عن حصن بعلبك فيمكننى لنا اذن تقدير مجموع عسكر دمشق بألف أو أكثر قليلا .

حمص

بعد حملة شمال الشام (١١٧٥ م) أقطع صلاح الدين حمص لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه علاوة على اقطاع الرهبه الذى كان له ، وعند وفاته ٥٨١هـ ١١٨٦م

ثبت فى أملاكه كلها من بعده ابنه شيركوه البالغ من العمر ١٢ عاما وتعين لآمرية القلعة أمير كمدى هو الحاجب بدر الدين ابراهيم الهكارى وليس فى المراجع أرقام عن قواتهم ولكن عسكر شيركوه الكبير كما لاحظنا من قبل بلغ عددها عند ولايته على حمص خمسمائة ! ويمكننا أن نتخذ هذا الرقم على أنه العدد التقريبى .

حمـــاه

كان أول ولاة صلاح الدين على حماه هو خاله شهاب الدين محمود الحارمى ثم خلفه (٥٧٤هـ/١١٧٩م) ابن أخى صلاح الدين (تقى الدين عمر) يعاونه قائد دمشق السابق ابن المقدم بصفته صاحب بعرين وكفرتاب ورعبان ، و"قائد العام الكردى المشهور صفى الدين المشطوب وكان على تقى الدين وابن المقدم أن يتحركا عقب ذلك مباشرة نحو الشمال للدفاع عن رعبان ضد سلطان الروم السلاجقة وتقدر قواتهما المشتركة فى تلك الحملة بألف مقاتل ويمكن على ذلك اعتبار هذا الرقم معبرا عن قوة عسكر حماة مع قوات قادة القلاع الداخلة فى مقاطعة حماه بما فيها قلعة شيزر .

حـــلب

لاحظنا من قبل أن الجانب الأكبر من عسكر نور الدين من المحتمل قد انضم إلى الملك الصالح فى حلب وقدم له العون فيما وقع من الأحداث بين صلاح الدين والملك الصالح (١١٧٦م) إلا أنه كان من حق صلاح الدين أن يستعين بعسكر حلب ضد الأعداء الخارجين وقد خدموا تحت قيادته فى الحرب ضـــد الأرمن فى كيليكيا ٥٧٦ هـ/١١٨٠م وقد كانت حاميات حماه وغيرها من الأقاليم الجنوبية وكذلك الأقاليم الواقعة على الفرات . . كانت تلك الحاميات عبئا على موارد حلب فلم يكن من المحتمل أن تستطيع الانفاق على أكثر من حرس نور الدين الخاص (النورية) وغيره من القوات الصغرى الخاصة بباقى الأمراء ، وليست لدينا من ذلك أرقام دقيقة ولكن اذا كانت هذه « النورية » فى الأصل ألفا كما جرت العادة فان مجموع قوات حلب لم تكن تزيد كثيراً عن هذا الرقم . وبعد احتلال صلاح الدين حلب ٥٧٩هـ / ١١٨٣م أعطاها أول الأمر لابنه الظاهر ثم لأخيه العادل فى نفس العام ثم عاد أخيراً وأعطاها

الظاهر ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م ، ولكن ليس هناك ما يدل على أية زيادة ملحوظة في عداد القوات النظامية .

الموصل والجزيرة

ذكر ابن الأثير في تاريخه عن حملة الموصل ضد صلاح الدين ٥٧١ هـ/ ١١٧٦م شيئاً قيما عن حجم قواتها وكان يصاحب عسكر الموصل في تلك الحملة قوات من كافة الأمارات الخاضعة لها بما فيها حصن كيفا وماردين ، ويعارض ابن الأثير ما ذكره عماد الدين من أن تلك القوات بلغت ٢٠٫٠٠٠ مقاتل . فيقول ابن الأثير أن عددها بالضبط يقل قليلا عن ٦٥٠٠ ويضيف إلى ذلك قوله : « وقد واجعت بنفسي سجل العرض وتوزيع العسكر في المعركة ما بين الجناح الأيمن والجناح الأيسر والوسط والطليعة . وقد كان أخي مجد الدين هو الضابط المسئول عن حفظ السجل .. والذي أود أن أعرفه هو هل تستطيع الموصل وما يتبعها إلى الفرات أن تحتفظ بعشرين ألف فارس .

وقد استطاع صلاح الدين في حربه الأولى بالجزيرة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ أن ينقل لسيادة إمارات حران (مظفر الدين جكبوري وكذلك إمارة الرها (وحصن كيفا وأمد وسنجار ودارا ونصيبين وغيرها من الحكومات الصغرى ، وفي السنة التالية تحولت سنجار إلى عماد الدين زنكي بالمبادلة مع حلب ، وفي سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ قبلت أربل وتوابعها حكم صلاح الدين وكانت تحت زين الدين أخي جكبوري . وفي سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥م سقطت ماردين وميافارقين وأقطع صلاح الدين جميع ديار بكر لمملوكه حسام الدين سنقر .

ويبلغ مجموع قوات هذه الأراضي زهاء أربعة آلاف وكانت تخضع لأوامر صلاح الدين مباشرة وليس لها شأن بالموصل ، وهكذا يتسنى تقدير قوات الموصل التي وضعت تحت قيادة صلاح الدين بمقتضى معاهدة ٥٨١ / ١١٨٦ بنحو ألفي مقاتل .

وهذه الأرقام وان يكن معظمها مجرد تقديرات فتؤيدها على وجه التقريب الأرقام

الواردة بتواريخ المعارك ٥٨٣ / ١١٨٧ وفى محرم (مارس) ترك صلاح الدين إبنه الأفضل ليتولى تجميع القوات الشمالية فى رأس المال * ، أما هو فتولى قيادة حرسه إلى الجنوب عسكر هناك مع القوة المصرية وعلى أساس أرقامنا يكون ما معه ألف فارس يضاف إليهم أربعة آلاف وهم نصف الجيش المصرى النظامى ، وفى نفس الوقت تجمع فى رأس المال فرسان الجزيرة (المشارقة) (أى الموصليين) وديار بكر بقيادة جكبورى ، وعسكر حلب بقيادة ديلدريم بن ياروق وعسكر دمشق بقيادة صارم الدين قيمز النجمى ، وفى أثناء غياب صلاح الدين قامت هذه القوات المشتركة بغارة على أراضى طبرية واكتسحت قوة من الهيكليين (الداوية) فى صفورية وتقدر المصادر الغربية عدد هذه القوات بسبعة آلاف فارس (١٥) وأخيرا عاد صلاح الدين بقواته من الجنوب واستعرض القوة بأكملها وقد بلغت ١٢,٠٠٠ فارس فى عشرة وذلك قبل السير فى الطريق الذى انتهى به إلى معركة حطين .

وهكذا يتسنى توزيع تلك القوات على وجه التقريب كما يلى :

ألف من الحرس وثلاثة آلاف من عسكر مصر وألف من دمشق وألف من حلب وشمال سورية (تاركين هناك نحو ألف للحراسة) وخمسة آلاف من الجزيرة والموصل وديار بكر ..

---

* رأس المال

القوات المعاونة

وعلاوة على العسكر النظامى من رماة السهام الخيالة وحملة الرماح كانت جيوش صلاح الدين تشمل قوات متنوعة من الراكبين والمشاه :

لاحظنا من قبل أن نور الدين استعان كثيرا بالقوات المعاونة من التركمان وقد واصل صلاح الدين هذه السياسة ، وهكذا حدث قبل الهجوم النهائى على الحصن فى مخاضة يعقوب عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م أن أرسل صلاح الدين إلى التركمان وقبائلهم وإلى البلاد لجمع قواتهم آلافا من الدينارات المصرية لتوزيعها بين جموعهم وصرفها لهم كهبات مقابل خدمتهم كقوات معاونة وأمر بأعداد مقادير كبيرة من الدقيق للتركمان مع توفير كل ما يحتاجون إليه بسخاء وكرم . وقد لعب التركمان اليارزوقيون بالفعل دورا ملحوظا فى الحروب الصليبية الثالثة . إذ أن وصولهم فى اللحظة الحاسمة وهجماتهم على خطوط تموين القوات الصليبية قبل بيت المقدس ، كل ذلك كان له أكبر الأثر فى تقهقر الملك ريتشارد (قلب الأسد) .

الأكراد

كان هناك بطبيعة الحال عدد كبير من الأكراد كانوا — كالأسرة الأيوبية نفسها ، ضمن العسكر النظامى ، ولهم إقطاعات أوجامكية كالمماليك الأتراك ، ولم يكونوا منتظمين فى سلك قوات نور الدين فحسب ، بل كان منهم من ناحية أخرى من انضم إلى قوات أمراء الزنكيين والأرتقيين ، وبجانب هؤلاء كان يوجد عدد من الأكراد المرتزقة وبخاصة فيما يرجع فى خدمة الأمراء الأيوبيين وقد ورد

ذكر وجودهم فى مصر فى كثير من المصادر التاريخية ، كذلك ذكر عماد الدين رجال القبائل الكردية فى جيش نور الدين فى حصن كيفا ، وفى خلال الحصار الثانى للموصل ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م أرسل صلاح الدين سيف الدين المشطوب وغيره من أمراء الأكراد إلى كردستان لاحتلال الحصون وكذلك ليتولوا التجنيد لما كان يزمع القيام به من عمليات عسكرية فى الشام ، إلا أن النزاع الطويل المتشعب الذى نشب فى أواخر تلك السنة بين الأكراد والتركمان فى ديار بكر والعراق قضى نهائيا على كل الآمال فى إمكان جلب قوات كردية من تلك الجهات .

العـــرب

كان بين الجيش النظامى أيضا عدد من فرسان العرب ، وأظهرهم فى المصادر التاريخية هم بنو منقذ من شيزر ، كما ورد كثيرا ذكر قبائل البدو بالشام ومصر وأن يكن ذكرا غير طيب ، وقد سبق أن ذكرنا أنهم اقطعوا بعض أقاليم الشرقية والبحيرة ، وكان فى الجيش النظامى ١٣٠٠ من قبيلة جدهم غير أن صلاح الدين فى عام ٥٧٧ / ١١٨١ أمر بمصادرة أملاكهم فى الشرقية وأمرهم بمغادرتها إلى البحيرة لتهريبهم الحبوب إلى الفرنج ، وبعد ثلاث سنوات أرسل جيشه إلى البحيرة لإخماد الفوضى بين رجال قبيلة جدهم . كذلك كان رجال القبائل فى جنوب فلسطين وشرق الأردن مصدرا مستمرا للمتاعب ، وقد كان الغرض من حملة صلاح الدين إلى الكرك ٥٦٨ / ١١٧٣ هو إبعادهم عن المنطقة ومنعهم من مساعدة الفرنج بإرشادهم إلى الطرق ، وبعد هزيمته فى جبل جيسار نهبوا ما تبقى من متاع قواته ولكن من جهة أخرى نرى أن بدو سورية مدوا صلاح الدين بقوات فدائية استفاد منها للاغارة فى مناسبات عدة ولا سيما فى عمليات عام ٥٧٤ / ١١٧٩ التى أرسل فيها رجال القبائل العربية إلى أراضى صيداء وبيروت لجنى محصولات العدو . وظل هو فى بانياس حتى عادوا محملين بأسلابهم ، كذلك لعب العرب دورا نافعا كخيالة خفيفة أثناء المعارك النهائية ضد ريتشارد على طريق بيت المقدس .



مقاتل فى الجيش المملوكى

الأجناد :

استخدم هذا اللفظ فى المراجع العربية بثلاث معان ، فقد استعمل كجمع لكلمة جندى للدلالة على أى نوع من الجنود بما فى ذلك القوات النظامية . واستعمل كلفظ على صيغة الجمع على جنود جميع القوات المنظمة ، وأطلق جماعياً على القوات العسكرية لإحدى المناطق (وكلا الاستعمالين يتلاءم تمام الملاءمة مع سجع القاضى الفاضل وعماد الدين) غير أن هناك آثاراً تدل على استعمال أكثر قدما وتخصصاً وهو التعبير عن القوات المحلية أو الميليشيا ، وتتميز عن العسكر فى كونها ليست رماة سهام راكبة . وإنما تحارب بالرمح والسيف . إلا أنه يحتمل كثيراً أن تكون هيئات الميليشيا السورية فى ذلك الوقت قد درس عهدها نتيجة لازدياد إستخدام العسكر الأتراك وإخضاع الأمارات المحلية ، وقد حل محلهم فى جيوش صلاح الدين المتطوعة الذين وفدوا من أقصى البلاد للمساهمة فى الحرب المقدسة وبقدر وجود إشارة خاصة بهم فى كتب التاريخ ، ولكن عماد الدين يسجل وجودهم فى معركة مخاضة يعقوب ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ وذلك بقوله : بعض متطوعة المجاهدين . . والغزاة المتطوعة . . الذين أشعلوا النار فى الكلا فى معركة حطين .

المشاه :

كان فى سرعة تحرك الفرسان فى المعارك سبباً فى إبعاد إستخدام قوات المشاة فى مجرى الحرب العادى . ولم يرد ذكرهم فى المراجع إلا فيما يتعلق بعمليات الحصار سواء كانوا فى حالة الحرب الدفاعية أو الهجومية وكانوا فى الحالة الأخيرة يسمون بالصناع أو الفنيين . ويذكر منهم عادة ثلاث فئات — الحجارون وهم الذين يعملون فى استخدام المنجنيق ، والعرادة ، والنقابون الذين كانوا يحفرون السراديب تحت أسوار الحصون ، والخرسانية الذين كانوا يستخدمون الحصون المتحركة ، والجندارية وهم بمثابة الضباط الذين كانوا يقومون بعمليات الحصار .

المعدات والمؤن :

كان الجيش النظامى كما لاحظنا آنفاً ينقسم إلى «إطلاب» يتراوح عدد كل منها ما بين ٧٠ و ٢٠٠ بقيادة أمير ، وقبل الخروج إلى القتال كانت الدروع والأسلحة المخزونة فى الزردخانة توزع على المحاربين ويصرف لهم راتب خاص لحاجات الحرب وكان كل أمير ومقاتل يأخذ معه مدداً من الزاد والعليق ، إما من المرتب المخصص من الحبوب وإما شراء على حسابه وما كانوا يحتاجون إليه بعد ذلك فكانوا يبتاعونه من التجار السابلة الذين كانوا يتجمعون عند قاعدة العمليات الحربية ، أو يتبعون الحملة ويقول عماد الدين أن الجيش عند ما بلغ السير فى حملته إلى الرملة ٥٧٣ / ١١٧٧ أعلن فى المعسكر أن كافة القوات ينبغى أن تتزود بعشرة أيام أخـــرى على سبيل الاحتياط لأننا لن نحصل على أقوات عند ما ندخل أرض الـكفار . ويستمر عماد الدين فى قوله « ولذلك ركبت إلى سوق العسكر لشراء الزاد غير أن الأسعار كانت قد ارتفعت فقلت لغلامى لقد عدلت عن رأيى .. أعـــرض للبيع كل ما فى أحمالى ومتاعى واستفد من ارتفاع الاسعار .

وفى خلال القتال فى الميدان لم يكن الفرسان يستطيعون الابتعاد كثيرا عن اثقالهم حيث يوجد زادهم وأسلحتهم . . ولم يكن السلاح يحمل الا عند توقع نشوب القتال فورا ، ولذلك كانت للمباغتة أهمية خطيرة فمناها مباغتة الجيش وهو أعزل ، أما الحملات القصيرة فكان الجيش يرسل اليها « جريدة » أى بدون أحمال وبدون دروع ثقيلة للفرسان وكانت كلمة جريدة تعبر أيضا عن القوات الخفيفة فى معسكرات الشتاء .

المماليك البحرية

يرجع استخدام المماليك فى مصر الى أيام الدولة الطولونية ، وقد وصل عدد هؤلاء الى أربعة وعشرين ألف مملوك . ولما جاء الفاطميون الى مصر وأسسوا بها

دولتهم ، ألفوا جيشهم من عدة عناصر منها المغاربة والسودانيين والأتراك .

وكان أكثر سلاطين الأيوبيين استجلابا للماليك — الملك الصالح نجم الدين أيوب فعندما جاء اليها من المشرق حيث ولاه أبوه الكامل أكثر من شراء المماليك حتى كان عامة عسكره منهم ولما خذله أنصاره من الأكراد ، وجد منهم عدته فاعتز بهم ، وأنفق فى ذلك أموالا كثيرة ، ثم شيد لهم الروضة وأسكنهم بها ومنعهم من الاجتماع بالناس ، وأحاط قلعتهم بعدة سفن حربية ، ولذلك سموا بالماليك البحرية تمييزاً لهم عن الطائفة الثانية من المماليك التى أطلق عليهم إسم المماليك البرجية نسبة إلى الأبراج التى كانوا يقيمون بها فى قلعة الجبل ، وهؤلاء ظهروا فى فى أيام السلطان قلاوون .

وقد إزداد نفوذ الماليك فى أواخر عهد الأيوبيين ، وخاصة بعد انتصارهم على الصليبيين فى معركة المنصورة ، تلك المعركة التى كانت من أقوى عوامل ظهور شأن بيبرس والماليك البحرية ، إذ كانوا عنوان النصر ومن أهم أسبابه ، ويعود إليهم تأسيس دولة المماليك البحرية التى كان لها شأن كبير فى القضاء على الصليبيين قضاء تاما وفى رد غارات المغول بل وهزيمتهم .

الأسلحة المعاصرة

المعركة المنصورة

ليس هناك أبحاث مفصلة تلق الضوء الساطع على ما كان يستخدمه الجيش المعاصر من سلاح وعتاد حربى ، ولكننا نجد إشارات عابرة كثيرة فيما كتبه المؤرخون العرب وغيرهم ، ومن أهمها ماذكره المقريزى فى كتابيه المعروفين : السلوك والخطط ، وكذلك فيما كتبه عماد الدين ، وأسامة بن منقذ السياسى والفارسى الأديب فى مذكراته القيمة التى دونها فى خلال العصر الأيوبى ، وكان قد زار مصر أثناء أواخر الحكم الفاطمى وشاهد فيها عدة انقلابات ومؤامرات كما أنه اشترك فى بعضها .

السلاح الاسلامى

وسنبدأ أولا الكلام عن أنواع السلاح الأسلامى والعتاد الثقيل ، ممـــا كان مستعملا فى القرن الثالث عشر ، ثم نتناول الحديث عن أسلحة الصليبين . فقد كان السلاح الأبيض عماد أدوات القتال ، فلم يكن البارود قد اكتشف بعد ، ومع ذلك فقد عرفت النار الأغريقية وأستخدمت على نطاق كبير .

كان السيف هو السلاح الشائع ، وقد تنوعت أشكاله ، فكان منها الطويل والقصير والعريض . ولاشك أن السيف المستقيم النصل كان أبينها ، وكان الجند يعلقونه فى الجنب أو يعلقونه فى الرقبة ! واستعمل الخنجر والأطبار والرماح والقضب والدبابيس والفؤوس ...

كان الدبوس عبارة عن هراوة مد ملكة الرأس فى طرفها كتلة صغيرة وكانت

تستعمل فى تهشيم الخوذة المعدنية ، يحملها الفرسان فى السروج تحت أرجلهم وكانت تعرف بالعمد . أما الطبر أو البلطة أو الفأس فكان له رأس نصف مستدير يركب فى قضيب من الحديد أو الخشب يحفر عليه بعض النقوش الأسلامية أو العبـــارات الدينية ويطلق على حاملية الطبردارية .

واستخدم الرمح أيضا وقد أجاد الفرسان استعماله ، ولرأس الرمح عدة أشكال وقد اختلف طول قناة الرمح ، وكان يطلق على الرماح القصيرة مربوعات،وعلى الرماح الطويلة الطوال .

واستخدم الجيش القسى ، وكان على نوعين : قوس يد وقوس قدم ، وقد صنع منه فى العصور الوسيطة قسى مركبة ، واصطنع لرمى السهام ضروب من المجانيق توضع فى الواحد منها عدة سهام ، وترمى عنها بالأقواس .

وكان المقاتل يرتدى الدروع (اللأمة) والزرد ، كان يضع على رأسه البيضة أو الخوذة أو المغفر لوقايتها ويمتاز المغفر بأن له واقية للأنف . وقد تعـــددت أشكال الخوذات فى خلال القرن الرابع عشر وما بعده .

والمعروف عن خوذة صلاح الدين أنها كانت مذهبة ، كما كانت خوذات السلاطين المماليك فى العصور التالية . ولم تكن الخوذة فى ذلك العصر تغطى الوجه بكامله ، كما كانت خوذات الصليبين أو المغول .

وكان المقاتلون يلبسون الزردأو الدرع المزردة ، وقد سميت كذلك للينها وتداخل بعضها فى بعض . ويصنع من حلقات معدنية صغيرة ، وقد جرى لبس الدرع على ثوب من النسيج المبطن يشبه الوسادة الخفيفة تحت حلقات المعدن أو صفائحه الرقيقة وقد وصلت صناعة الدروع أوجها عند المسلمين فى زمن الحروب الصليبية ، ونقلت صناعة الدروع الآنيقة إلى أوربا على أيدى الصليبيين .

وكانت لأمة المقاتل (اللبوس) تؤلف من الجوش وهو الجزء الذى يقى الصدر وهناك أجزاء أخرى تقى الساعين والساقين والكتفين ولكل منها إسم خاص .

أما البيضة أو الخوذة فكانت لوقاية الرأس كما ذكرنا .

المنجنيق :

وجرى المماليك فى معاركهم الدفاعية على استخدام المجانيق ، والمنجنيق آلة ترمى بها الحجارة على الأعداء ، وكانت عبارة عن قاعدة من الخشب فوقها قائمتان على الجانبين ، وتتصل هاتان القائمتان بعرضة مركب عليها سهم يراعى فى وضعه أن يكون أحد طرفيه قصيرا والآخر طويلا . وتثقل الجهة القصيرة حتى يصير وضع السهم رأسيا . وتركب فى الجهة الطويلة الكفة التى يوضع فيها الحجر المعد للقذف بعد أن يجذب حتى يجعل عاليه أسفله ، وعندئذ يخلى السهم فينطلق الحجر نحو الهدف . ولم يكن يرمى من المنجنيق الأحجار فقط ، بل كان يقذف منه الحديد وقدور فخارية أو زجاجية تملأ بالنفط والزرنيخ وترسل على الأعداء . وكانت المجانيق تحمل على الابل بعد فصل بعض أجزائها عن بعض ، ثم تركب عند حصار حصن .

الدبابة :

واستعان الأيوبيون والمماليك على هدم أسوار الحصون بعدة آلات أخرى مثل الدبابات ذوات العجل والضبور والكبش والقلاع المتحركة . ولم تستخدم الدبابة فى تلك الأيام كسلاح هجومى ، بل كان المحاربون يدخلون فى جوفها بعد اقترابهم من جدران الحصن ، فينقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من مطاردة العدو . وقد عرف الضبور فى عهد المماليك ، وهى كالدبابة وتصنع من الخشب المغطى بالجلد ، ويكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن فيقاتلون من فيه وهم فيها .

أما الكبش فهو يشبه حجرة صغيرة مركبة على عجل مصنوعة من الخشب المحكم ، ومغلقة بلبود أو جلود منقوعة فى الخل ، وبداخلها الجند يحركونها بدفعها حيث لا أرض لها . وقد يعلق فى سقفها بسلاسل يربط فيها عمود أفقى له رأس كرأس الكبش ، وتقترب هذه الآلة إلى أسوار الحصن أو القلعة ، ويعمل الرجال فى نقب الأسوار إما بآلات عندهم أو بواسطة رأس الكبش بتحريكها بقوة لتصطدم بحائط السور ، وهكذا مرات عدة حتى يتصدع الحائط ويخرب .

عرف المماليك « القلاع المتحركة » وهى أبراج من الخشب السميك مغلفة باللبود. وتدار حركتها بواسطة لوالب تدفع بها لتساعدها من أسفل ، ويصعد الرجال إلى أعلاها وقد أديرت حولهم الستائر . ويحمل على هذه القلاع المجانيق الصغيرة حتى يشرف الرماة على أماكن المحصورين ، ويساعد القلاع مجموعة من السلالم الخشبية تلقى على الأسوار عند الهجوم والاقتراب من أسوار الحصن من أعلاه .

واستخدم المماليك القذائف ، وكانت تشبه القوارير المصنوعة من الزجاج أو الفخار وتملأ بالنفط والصبر وبذر القرطم المقشور . فاذا أريد القاؤها على الأعداء أشعلت أولا ، ثم رمى بها بواسطة سلسلة ، فاذا انكسرت على شىء أشعلت فيه النار .

الأسطول

كان الأسطول قد أهمل أمره فى أخريات أيام القاطميين ، الأمر الذى دعا الفرنجة الى الهجوم عدة مرات على ثغور مصر : دمياط والاسكندرية وتنيس ، التى اغاروا عليها فى سنوات ٥٧١ ﻫ / ١١٧٠ ، ٥٧٣ ﻫ/ ١١٧٣ ، ٥٧٦ ﻫ / ١١٨٠ .

ولما تولى صلاح الدين الحكم بدأ يعنى بتعمير الأسطول ، ففى عام ٥٧٢ ﻫ / ١١٧١ وفى اثناء إقامته فى الاسكندرية أمر بأن يجمع له من الأخشاب كميات كبيرة ومن الصناع عددا جماً . حتى إذا أتم صنع المراكب أمر فحمل اليها ما هى فى حاجة إليه من العتاد والآلات ، وشحنت بالرجال ، وولى عليه أحد أصحابه ، وخصص له إقطاعا خاصا(١) وموارد ثابتة يجبى منها مقدار ضخم ينفق عليه . وأفرد للأسطول ديوانا خاصاً سلمه الى اخيه الملك العادل . وأعطى صلاح الدين صاحب الأسطول سلطة كبرى فى تخير رجاله واعداد سلاحه . فكتب الى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول والا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج اليه . واشتهر من أمراء البحر فى عهد صلاح الدين القائد العظيم حسام الدين لؤلؤ الذى قضى على نشاط الصليبيين البحرى فى البحر الأحمر . وقد بلغت مدة الأسطول سنة ٥٧٥ ﻫ ١١٧٩

---

١ ــ الروضتين جا ص ٦٩

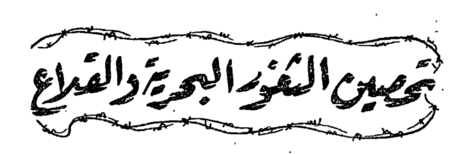
ستين شينياً وعشرين طريدة [1] ولا بد ان يكون عدد قطع الأسطول قدزاد بعدذلك فان صلاح الدين ما كان يضن على هذه القوات البحرية بمال ، وبذلك تضاعفت قطع الأسطول فى عهده ، مع أنها لم تكن تتعدى عشرة آلاف شوانى آخر ايام الفواطم ، واتبع الأسطول خطة الهجوم على موانىء الأعداء بدلا من سياسة الدفاع المحلية . ومنذ عام ٥٧٤ ﻫ / ١١٧٨م بدأت سلسلة من الغارات البحرية على عكا وغيرها من ثغور الصليبيين فى سورية وأصابت انتصارات طيبة .

وفى أثناء غزوة الملك لويس على الدلتا عنى بتشييد أسطول نهرى من السفن الخفيفة والحراقات ، كان لها أثر واضح فى قتال قوات العدو وقطع خطوط مواصلاته بين دمياط وجنوده فى الجبهة .

وكانت أهم القطع التى يتألف منها الأسطول : الشوانى والحراريق والطرادات والأغربة والبطس والقراقير . وكانت الشوانى أكبرها وأكثرها إستعمالا .

---

١ ــ المرجع السابق ج ٢ ص ١١



ولم تقل عناية صلاح الدين بتحصين الثغور عن إهتمامه بالأسطول أو الجيش ، فقام بتحصين دمياط التى كانت فى أيام الخلافة الفاطمية دار صناعة للسفن الحربية ، كما أمر بتدعيم مآصرها الحديدية التى كانت تثبت بين برجين من الحجر فى مقابل الثغر ، حتى لا تستطيع سفن العدو أن تدخل الميناء ، ورتب المقاتلة فيهما وأمر بترميم سور دمياط الذى تهدم بعضه من غارة الفرنج عليه ، واهتم صلاح الدين بعمارة قلعة تنيس وسورها [1] وبلغ ما أنفقه على تحصينات دمياط حوالى مليون دينار . وجدد صلاح الدين أسوار الإسكندرية وأحاطها بخندق . وبلغ من عنايته بتلك الأعمال أنه سافر إلى كل من دمياط والإسكندرية ليشرف عليهما فى عام ٥٥٧ هـ / ١١٧١ — ١١٨٢م واهتم أيضاً بإقامة المراكز المحصنة ونقط الحراسة فى شبه جزيرة سيناء . وأهم تلك الحصون قلعة صور .

القلاع والحصون

يمكننا أن نطلق بحق على القرنين الثانى عشر والثالث عشر عصر بناء القلاع فى سوريا ومصر فقد أقام المسلمون والصليبيون عدداً كبيراً منها فى المواقع العسكرية الهامة ولا يزال عدد كبير منها نشاهده إلى اليوم ، وكانت هذه الحصون تحوى حاميات مسلحة تنهض بأعمال الدفاع أو الهجوم إذا طلب منها ذلك وسنتكلم عن بعض هذه الحصون .

---

١ — جزيرة فى وسط الماء مجاورة لبر دمياط اشتهرت بحرفها التجارى وكان يرابط فيه أيام الفواطم حوالى ألف سفينة .

أسوار القاهرة

شيد القائد جوهر مدينة القاهرة فى عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م وقد أحاطها بسور لم يبق شىء اليوم منه . ولم تصل إلينا عنه معلومات معمارية سوى أنه بنى من اللبن وأن عرضه كان يسمح لفارسين بالمرور عليه فى اتجاهين متضادين .

وبنى السور الثانى للقاهرة الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى فى عام ٤٨٠ — ١٠٨٧ م خارج سور جوهر الأول لا على أساسه . وكان مثله مشيداً من اللبن للجدران ومن حجر منحوت للأبواب والأبراج وقد قام ببناء الأبواب الثلاثة — باب النصر — باب الفتوح — باب زويلة — ثلاثة أخوة من رجال العمارة أتوا من الرها (أورفا) شيد كل واحد منهم باباً ، ولا تزال تلك الأبواب المنيعة باقية إلى اليوم فى أماكنها . وقد عنى رجال الآثار بدراسة تلك الأبواب دراسة مفصلة يمكن الرجوع إليها فى مراجعها .

أما سور القاهرة الثالث فقد ابتدأ فى عمارته صـــلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦ هـ ٦٩٩ / ١١٧٠ وقد كان حينذاك وزيراً للعاضد لدين الله آخر خلفاء الفواطم بمصر .

فلما استولى على الملك عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) وصار سلطانا ندب بهاء الدين قره قوش للعمل فى السور فبناه بالحجارة كما هو عليه اليوم — وبدلا من أن يحيط به القاهرة وحدها قرر أن يطوق بها قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط ولكنه توفى قبل أن يتم ذلك .

ونجد تفاصيل عمارة ذلك السور وما اشتمل عليه من أبواب وأبراج ومشربيات ومزاغل وزخارف ونقوش فيما كتبه العلامة الأستاذ كرزويل .

قلعة الجبل

تعتبر قلعة الجبل من أهم منشئات صلاح الدين العسكرية قرر بناءها فى عام ٥٧٢هـ ١١٧٦ م وتم العمل الكبير فيها عام ٥٧٩ هـ — ١١٨٣ / ٨٤ .

يتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من مربعين من الأرض مستقلين : الشمالى منه يشبه مستطيلا ذا أبراج بارزة ويفصله عن المربع الجنوبى حائط سميك وأبراج ضخمة ويخرج المربع الجنوبى عن الشمالى مكونا معه زاوية قائمة وحدود هذا المربع ليست منتظمة ويبدو أنه لم يكن فى البداية جدران محصنة وكان حول القسم الشرقى من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهرا ، فان الصخور محفورة فى هذا الجانب إلى عمق كبير بحيث يضاعف ارتفاع الجدران ، وبذلك فصل صلاح الدين بين جبل المقطم وبين جزئه الواقعة عليه القلعة بهوة كبيرة ليمنع أى عدو قد يسيطر على جبل المقطم من الافادة على إشرافه على قلعته .

ويعزى إلى صلاح الدين بناء حائط السور بأبراجه النصف الدائرية ويبدأ هذا السور من الجانب الشرقى لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذى يشغله اليوم المتحف الحربى ، وينسب إليه أيضا البابان الخلفيان والجزء الداخلى من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذى يمتد جنوبيه بما فى ذلك الجزء الخلفى من البرج النصف الدائرى الكائن بين الباب الأخير والباب المتوسط .

وموجز القول أن صلاح الدين شيد سور القلعة كاملا وقويا على قدر ما سمحت له الظروف المحيطة به وبفضل نشاط وزيره قرهقوش . إذ أنه استدعى لفلسطين فى ١١ مايو ١١٨٢ وخاض غمار حروب طاحنة خرج منها منصوراً ، إذ هزم الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس فى اكتوبر ١١٨٧ م .

ولما خلفه أخوه الملك العادل كانت الأمور قد استقرت قليلا فانتهز العادل هذه الفرصة واستطاع بما لديه من الثروة وما له من النفوذ أن يعيد تحصين المواقع الحربية فى سورية ومصر وغيرهما .

ولا تزال قلاع حلب ودمشق وبصرى وأطلال حصون جبل طابور وقلعة النجم على الفرات شاهدة على جهوده الكبير ونشاطه فى هذا السبيل .

وينسب إلى الملك العادل فى القلعة الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة بالجانب القبلى وهى برج صفطه وبرج قرقيلان وبرج العلوه ، والزيادة التى أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء الداخلى ببرج الصحراء والبرج الكبير الذى لم يتبق منه سوى قاعدته والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور ، وقد تمت أعمال الملك العادل عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٦ / ٧ م)

قلعة بصرى

وفى بصرى حيث كان يقوم مسرح رومانى كبير شيد فى القرن الثانى الميلادى أدرك الأيوبيون أهمية تحويله إلى قلعة منيعة وذلك بتشييد عدد كبير من الأبراج حوله ، وتحمل هذه الأبراج عدداً كبيراً من النقوش الكتابية للملك العادل وتواريخها كالآتى : —

٥٩٩ هـ (١٢٠٢ — ٣ م) و ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) و ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) و ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) و ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) و ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) .

وهناك نقش آخر باسم الملك الصالح تاريخه ٦٢٥ هـ (١٢٢٨) وأحـد تلك الأبراج يشبه من الداخل أحد أبراج العادل فى قلعة الجبل ويشتمل على قاعة كبيرة يعلوها قبو وقد شيدت القاعة بالأسلوب المتعامد .

قلعة دمشـــق

وقلعة دمشق كما هى عليه اليوم من أعمال العادل أيضا ، بدأ عمارتها تاج الدولة تتش عام ٤٧١ ﻫ (١٠٧٨) الذى جعلها دار الأمارة واهتم بتعميرها السلطان نور الدين ثم العادل وتمتد تواريخ نقوشها بين عامى ٦٠٥ ﻫ و ٦١٤ (١٢٠٨ — ١٢١٧م) ويقوم فى جانبيها الشرقى والشمالى مدخلان عظيمان من طراز الأبواب المنحنية على شكل زاوية قائمة وتعلو جميع أبواب القلعة المشربيات الدفاعية ،

قلعة جبل طابور

وقد حصن العادل قمة جبل طابور (عام ٦٠٧ﻫ — ١٢١١م) ولم يبق إلا مخلفات قليلة من حصونه اليوم وفى برج خرب نلاحظ فتحة للسهام (مزغل) على شكل حرف يشبه فى تفاصيله المزاغل الموجودة فى قلعة الجبل والتى تنسب أيضا إلى العادل .

قلعة حلب

تنهض قلعة حلب فى وسط مدينة حلب على تل مستدير الشكل غطى بزلاقة من الحجارة ويصل إلى القلعة بواسطة قنطرة عبر خندق وتتكون القنطرة من سبعة عقود.

ندخل إلى القلعة بعد أن نمر عبر مدخلها ذى الأركان المستديرة وعلى هذا المدخل نجد نقشا للسلطان الغورى يشتمل على تاريخ عام ٩١٣ ﻫ (١٥٠٧) ثم نعبر الخندق على جسر (قنطرة) عاليه إلى أن يقابلنا برج المدخل الكبير (عرضه ٣٠ مترا وعمقه ٣٥ مترا) ، الذى يمر فى وسطه المدخل الرئيسى وهو مغطى بقبو على شكل نفق ، ثم ننثنى إلى اليمين لنجتاز المدخل الخارجى الرئيسى فيقابلنا باب من الحديد ، ثم ننثنى إلى اليسار وإلى اليسار مرة أخرى ونعبر بابا آخر من الحديد ومنه إلى ممر مقبى فنجـــد

أنفسنا فى الجانب الآخر من البرج وندور يمينا مرتين ثم نمشى إلى اليسار ونجتاز بابا حديدياً ثالثاً فنجد أنفسنا فى الجانب الداخلى للبرج (بعد خمسة منحنيات)

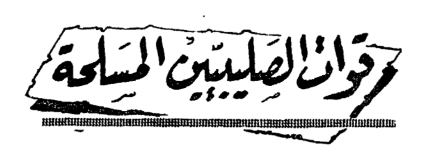
وذكر ابن الشحنة نقلا عن ابن شداد أن الملك الظاهر غياث الدين غازى هو الذى غطى سفح التل بالحجر وشيد بابالقلعة وكان ذلك فى عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) وعمل الملك الظاهر لهذا الباب جسراً (قنطرة) ممتدا منه إلى البلد وبنى على الباب برجين وعمل للقلعة خمس دركات وجعل لها خمسة أبواب من الحديد وبنى فيها أماكن للجند وأرباب الدولة .

قلعه النجم

وقلعة النجم حصن مستدير مشيد بالحجارة الجيلة ومقام على تل مستدير يحمى قنطرة عبر الفرات بين جرابلس وبالس وهى تشبه من بعض النواحى قلعة بصرى ويدل النقش الموجود على المدخل أنها من بناء الملك الظاهر فيما بين ٦٠٥ و٦١٢ هـ (١٢٠٨ — ١٢١٥ م)

قلعه الروضة

أنشأ هذه القلعة الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ٦٣٨ هـ / لتكون مقراً لماليكه البحرية . وقد عرفت أيضا باسمى قلعة جزيرة الفسطاط ، وبقلعة المقياس وبقلعة الصالحية . قال المقريزى (ج ٢ ص ١٨٣) .. وقد أنفق الصالح فى عمارتها أموالا كثيرة حيث بنى فيها الدور والقصور ، وعمل لها ستين برجا ، وبنى بها جامعاً ثم اتخذها دار ملك، وسكن فيها أهله وحرمه ، وأسكن فيها معه ماليكه البحرية ، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك . وقد درست هذه القلعة بما كان فيها ولم يبق لها أثر اليوم ، وكانت القلعة تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا واقعة فى الطرف الجنوبى من جزيرة الروضة .



الجيش وسلاحه :

كان تسليح الجندى بالدروع (armour) قد بلغ ذروته ومر بأهم مراحله ابان الحروب الصليبية وأثناء نصف القرن التالى . فقد انتقل من الزرد الفضفاض المؤلف من حلقات الصلب أو صفائح الحديد الصغيرة المتقاربة إلى دروع القرن الرابع عشر الضخمة .

وكان اللبوس (الدرع الكامل) فى خلال الحملة الصليبية الأولى يصنع من الزرد أو الصفائح المعدنية المثبتة على بطانة من الجلد أو متصلة بعضها ببعض . وعندما يصنع من الصفائح المعدنية كان القميص طويلا لا أكام له . أما إذا كان من حلقات الزرد فانه يحبك على الجسم ويغطيه بما فى ذلك الذراعين ، بينما كانت تصنع واقيات خاصه للفخذين .

وكان الفرسان النورمنديون فى أحوال نادرة جداً يرتدون الأحذية الحديدية ، وقد رسم وليم الأول على تلك الصورة فى المناظر التى رسمت على قطعة نسيج بايو المحفوظة الى اليوم فى كاتدرائية بايو فى فرنسا .

ثم طرأ على الدروع تغيير لم يعم العالم إلا بعد قرن كامل فى أعقاب الحرب الصليبيه الأولى ، ذلك هو الدرع المعروف باسم هوبرك (Hauberk) وكانت تتألف من جزئين . زرد محكم على جسم الجندى يغطيه حتى الركبتين وفى أسفله لباس

يقى الساقين إلى أعلا حتى الوسط ، وكان هذا الدرع مصنوعا بحيث يسهل معه امتطاء الخيل . وفى كثير من الأحيان كانت تبرز منه قطعة واقية للرقبة والرأس تنتهى بخوذة مدببة ، ثم حلت محلها خوذة أخرى أكبر منها حجما كانت تغطى الرأس والوجه جميعا فيما عدا فتحات صغيرة للعينين والأنف ، وكان هذا النوع من الخوذات يحول دون رؤية الجند بعضهم بعضاً أو القادة فى أثناء القتال .

وكان المقاتل يدافع عن نفسه بواسطة الترس الذى كان يصنع منذ أقدم العصور من خشب الزيزفون ، وأصبحت أحسن أنواع التروس فى القرن الثامن عشر، تصنع من شجر الدردار ، أما التروس المعدنية فما كان يسمع عنها أحد حينذاك إلا نادراً . وكان ترس العصور الوسطى يصنع فى الغالب على شكل القلب ، ويتخذ شكلا مستديراً فى بعض الأحيان ، وكان يغطى بطبقة من الجلد وله فى الغالب بروز صغير فى وسطه وتمتد منه شرائط معدنيه تصل إلى الأطراف . وكان الجندى يحمل ترسه على كتفه حينما لا يكون فى حاجة الى استخدامه ، فى حالة استعمال المزراق كان يعلقه فى رقبته ليقى صدره .

وكان السيف أكثر الأسلحة استعمالا ، ثم المزراق والبلطة . وقد تغنى الشعراء الانجليز المتقدمون بالسيف وألعابه . وكانوا يخلعون عليه بعض الصفات الانسانية ولهذا تسمع فى القصص عن أسماء خاصه بسيوف الأبطال : فلشرلمان سيفه (Montjoie) ولرولان سيفه "Durandal" وكان السيف فى تلك العصور طويلا وعريض النصل ، وقصيراً فى بعض الأحيان .

أما الرمح أو المزراق فكان يصنع من خشب البلوط وأحياناً من خشب شجر التفاح . وكانت رءوس الرماح تصنع على صور متباينة على أشكال ورق الشجر أما طول الرمح جميعه فكان حوالى ثمانى أقدام . أما الرمح الذى يرسل كالقذيفة فى الفضاء فكان رفيعا ، أما إذا كان من النوع الذى يطعن به ، فان قبضته كانت أكثر سمكا .

وكان يستخدم المقاتل القوس بأشكاله المختلفة ، ولعل من أهم الأنواع قوس الرجل

أسلحة الحصار

امتازت الحروب الصليبية بعمليات الحصار ، وكانت أخطر أسلحتها تلك الآلات قاذفات الأحجار الضخمة أو المجانيق ، وكانت أشدها فتكا آلة تسمى تريبوشية (Tribuchet) استخدمها الصليبيون منذ عام ١٠٩٧ فى معركة نيقية . وكانت شهرة القائد وكفاءته العسكرية تتوقف إلى حد كبير ، على كفايته فى إعداد آلات الحصار واستخدامها بأسلوب فنى صحيح .

وكان الجند يتقدمون نحو الحصن المحاصر خلف ستائر واقية بعد أن تدقه آلات الحصار المذكورة دقا كافيا . وكان يسمى هذا الستار « تستودو » (Testudo)

على أن أهم وسائل الهجوم فى أثناء الحروب الصليبية كان برج الحصار — وهو عبارة عن برج خشبى متحرك يعلو ارتفاعه عن سور المدينة أو الحصن المطلوب مهاجمته وكان البرج يتألف من عدة طوابق يسمى كل طابق منها باسم خاص ، فقد كان البرج الذى استخدمه الملك أملريك الأول فى حصار دمياط مؤلفا من سبعة طوابق .

وكان البرج — فى بعض الأحيان — يدفع إلى الأمام على عجلات بواسطة رجال يعملون فى داخله ، وفى بعض أحيان أخرى كان يدفع على قطع خشبية أعدت لهذا الغرض ، وفى أحد الطوابق ترضع آلة الكبش أو عامود الكبش الذى تدق بها الجدران فتعطبها . وفى أعلا البرج كانت توجد قنطرة يمكن خفضها ورفعها لدى الوصول إلى أسوار الحصن ، ليعبر عليها الجنود حين اقتحامهم الحصن ..

وكان أول هم للمدافعين أن يحاولوا إبعاد برج العدو عن حصنهم ، وذلك بشتى الوسائل كأن يثبتوا فى الأسوار قضبانا من الحديد المدبب ، أو يقذفوا العدو بالنار الاغريقية ، أو بالسهام الملتهبة ، وقد واجه بلدوين الأول هذه الوسائل مرارا

في حصار أرسوف . وفي أثناء حصار دمياط (١٢١٩ م) نصب المسلمون خمسة منجنيقات لتحطيم البرج الذي استعان به الفرنج على الهجوم .

أما وقاية تلك الأبراج من النار أو الحجارة فكانت تتم عن طريق تغطيتها بالقماش المنقوع في الخل أو بشبكة دقيقة من الحبال أو بالأكياس المعبأة .

حصون الصليبيين

أملت الحاجة الاستراتيجية على الصليبيين حينما قدموا إلى سورية ، الإكثار من بناء القلاع والحصون، سواء في داخل البلاد أو على الساحل السوري . وقد عنوا بدراسة أساليب العمارة العسكرية في خلال مسيرهم الطويل من الغرب إلى الشرق ، كما أفادوا من قوة ملاحظتهم . ولما كان موقفهم يتطلب المزيد المستمر من الرجال وكان احتفاظهم بجحافل ضخمة العدد أمراً صعباً ، فقد اهتموا بمتانة قلاعهم وحسن اختيار المواقع لها ، تلك التي تتوافر فيها المزايا العسكرية الدفاعية .

ولما كان من الصعب استعمالهم جنود الكشافة ، فقد استعاضوا عنهم بتيسير تبادل الرؤية ، بمعنى أن تكشف كل قلعة ما يجاورها أو يليها من الحصون . وقد بالغ الصليبيون في زيادة سمك جدران القلاع وعلى إطالة ارتفاعها لكي تقاوم الهجمات المباشرة والأسلحة الفتاكة . وفي الوقت نفسه كانت تؤدي القلعة وظيفة المركز الرئيسي للأمير أو الملك أو نائبه والمقر الإداري للحكومة .

وكانت المساحة التي تشغلها القلعة ، أو الحصن كبيرة وتسمح بوقاية قطعان الحيوان أثناء غارات العدو المتكررة . والحقيقة أن القلعة قد لعبت دوراً أكثر أهمية للصليبيين مما لعبته عند العرب والبيزنطيين . واستفادوا كثيراً من عمارة الحصون العربية والبيزنطية .

أسرع الصليبيون عقب إنزال جيوشهم في سورية في إصلاح أسوار المدن التي احتلوها . وشيدوا القلاع لحراسة إماراتهم . وكانوا يشيدون القلاع على حافة المدن

لكى تضطلع بالدفاع المستقل عن المدينة . وقد شيدوا أول قلعة يمكن تأريخها بدقة .. قلعة الكونت ريمون على جبل الحاج عام ١١٠٤ م وذلك لكى تكون مقراً لرئاسة الجيش .

كانت قلاع الصليبيين فى أوائل القرن الثانى عشر صغيرة كقلعة بلفوار (Belvoir) شيدت على الأسلوب البيزنطى وأحيطت بسور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريبا وتكتنفه الأبراج . ويقوم فى وسطها حصن عال (Keep) كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع .

بدأ العصر الأول فى بناء القلاع الصليبية فى سورية فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر فى أيام الملك بلدوين الثانى (١١١٨ — ١١٣١ م) واستمر على أيام فولك ، حينما شيدت قلعة كرك مؤاب (١١٤٠ — ١١٤٣) شرقى البحر الميت ، وقلعة بوفورت عام ١١٣٩ م على قمة أحد الجبال المشرفة على نهر الليتانى ، وإلى الشمال قلعة صهيون على حافة تل مرتفع بين وهدتين عميقتين . وكذلك تلك المجموعة من الحصون الصغيرة نسبياً فى بلاد اليهودية مثل قلعة الحارس الأبيض التى بناها الملك فولك فيما بين عامى ١١٣٧ — ١١٤٢ . وتعرف أيضا باسم تل الصفى . وتؤلف هذه القلعة مع إبلين وبيت جبلين حلقة دفاعية حول عسقلان فى الجنوب الغربى من فلسطين .

وقد أدرك الصليبيون أهمية موقع قلعة صهيون وزادوه مناعة . ومن ذلك فقد استخدموا المتاريس المدلاة ، وهى أبواب من الحديد تثبت على بوابات الحصون وتدلى منها عند الضرورة فتسدها وتعرف هذه المتاريس باسم (Porticullis) وقد استخدمها الرومان منذ القدم فى قلاعهم وفى حصن قصر الشمع ببابليون ، كما استخدمها العرب فى حصن الأخيضر ،

ومن أهم القلاع التى شيدها الصليبيون فى سورية — قلعة حصن الأكراد التى تقع على مسافة ٢٤٠ كيلو مترا من دمشق وتشتمل على مجموعة نادرة من أعمال الدفاع والأبراج المستديرة والجدران والمشربيات والأقبية التى تحت الأرض والزلاقة الخارجية ، فضلا عن مناعة الموقع العام . وقد نشبت حول القلعة معارك عنيفة لا عدلها

وكان آخرها ذلك الحصار المستميت بين قوات الظاهر بيبرس وفرسان الاسبتارية الذين كانوا يدافعون عنها إلى أن سقطت فى قبضة المسلمين فى ٨ أبريل ١٢٧١ م

ونذكر من قلاعهم : صافيتا (١١٠٤ م) وطرطوسة التى شيدتها طائفة الداوية على الساحل ، وقلعة أثليت التى تبعد حوالى ١٣ ميلا جنوب غربى حيفا ، وهى من أجل العمائر العسكرية شيدها رجال الداوية عام ١٢١٨ م وكانت مقر رئيس طائفتهم إلى أن وقعت فى قبضه السلطان الملك الأشرف بعد سقوط عكا فى عام ١٢٩١ م

الأسطول الصليبى

إعتمد الصليبيون كثيراً على الأسطول فى نقل جنودهم وعتادهم من غربى البحر المتوسط إلى شرقيه ، وقد أسهمت فيه غالبية الدول المسيحية .

ففى الحرب الصليبية الأولى اعتمد الأسطول على جمهوريات إيطاليا فى تموينه ، كما قدم أهالى البندقية وبيزا وجنوه خدمات بحرية كثيرة .

والمعروف أنه فى سنة ١١٥٣ م كان جيرار الصيدوى يقود الأسطول الملكى إلى عسقلان وكانت تحت إمرته خمسون قطعة سريعة ، وعندما هدد صلاح الدين بيروت عام ١١٨٢ استطاع بلدوين أن يجمع فى سبعة أيام أسطولا مؤلفا من ٣٣ قطعة بحرية ، وكان لكل من كونت طرابلس وأمير أنطاكية أسطوله الخاص بإمارته ، ولهذا استطاعت طرابلس عام ١١٨٨ أن تجهز عشرين سفينة لإنقاذ صور ، ومنذ سنة ١١٢٧ كان لدى بوهمند ١٢ سفينة و ١١ ناقلة .

وإلى جانب أسطول البحر الأبيض ،كان هناك أسطول آخر ولو لفترة قصيرة فى البحر الأحمر ، ففى سنة ١١٨٢ / ٨٣ استطاع أرناط أن يكتسح بعض ثغور هذا البحر مستعينا بعدد كبير من السفن الصغيرة ، وهدد الحجاج المسلمين . على أن ذلك النجاح كان قصير الأجل ، إذ تمكن صلاح الدين من إعداد أسطول تحت إمرة حسام الدين لؤلؤ ، حطم به أسطول أرناط .

وأهم أنواع السفن الصليبية : الغلايين (galeon) ويتراوح طول الواحدة منها بين المائة والمائة وعشرين قدما ، بينما يبلغ عرضها حوالى ستة أقدام ، ولهـــا صف واحد من المجاديف ويعمل بها حوالى مائه ملاح .

وعرفت أنواع أخرى كان يطلق عليها أسماء الرماح ، والحمام والجمال ! وكانت جميعها صغيرة وسريعة ، وتستعمل لأغراض الكشف ، وفيما يلى أهم أنواع السفن .

١ ـــ دروموند (Dromonds) كانت تستخدم فى نقل السلاح والطعام وآلات القتال .

٢ ـــ ألبوسات (Busses) والسلندريات (Salanders) وكانتا أصغر من الأولى .

٣ المسيرات (Hussiers) تستخدم لنقل الخيل .



١ — جاء أسد الدين شيركوه إلى مصر على رأس ثلاث حملات : جاءت الحملة الأولى على أثر مكاتبه ضرغام الوزير الفاطمي للملك أموري الصايبي ، فاوفد نور الدين قائده شيركوه الذي هزم الجيش الفاطمي بقيادة ناصر الدين ملهم ومجد الدين همام أخوضرغام في تل يسطه (قرب الزقازيق) في مايو ١١٦٤ ، أما الحملة الثانية فكانت في أثناء عامي ١١٦٦ /٦٧ م وهي التي اشترك فيها صلاح الدين وقد عادت الى دمشق في ٥ سبتمبر سنة ١١٦٨ م وجاءت الحملة الثالثة في خلال عامي ١١٦٧ /١١٦٩ م . وفي غضونها أمر شيركوه باحراق الفسطاط وفي أعقاب الحملة أدركته المنية في ٢٣ مارس عام ١١٦٩ وخلا الجو لابن أخيه صلاح الدين .

٢ — تكلم C. Cahen عن التركمان الياروقية وصلتهم بالسلطان نور الدين في كتابه La Syrie du Nord. Paris ‘ 1940 P · 378

٣ — أبوشامه — كتاب الروضتين في اخبار الدولتين طبعة وادي النيل بمصر ١٢٨٧ هـ .

ج ١ ص ١٧٣ .

٤ — أبو الهيجاء وقد سمي بالسمين اصغر رأسه وكبر بطنه ورآه في بغداد سنة ٥٩٣ هـ كواز فعمل كوزا على شكله وعمل البغاده بعد ذلك كيزانا وسموها أبا الهيجاء السمين على صورته — ابن الاثير ج ١١ ص ٥٧٢ — وأنظر ذيل الروضتين ص ٩

٥ — هذه القوات الأخرى قد تكون من رجال صلاح الدين أو من قوات توران شاه .

٦ — ابن مماتى : ص ٣٦٦ .

٧ — ابن مماتى ص ٢٣٢ — ٢٣٣ — و ص ٢٥٨ — ٢٧٦ ورسالة القاضى الفاضل ذكرها . أبو شامة ج ٢٢١ .

٨— الكنانية هم الأمراء وأصحاب الاقطاعات من عرب قبيلة كنانة هاجروا من جنوب فلسطين بعد سقوط عسقلان عام ١١٥٣ وأسكنهم الوزير طلائع بن رزيك بالقرب من دمياط (القلقشندى ج ١ ص ٣٥٠) وكان رجال الكنانية على الملم بطبيعة أراضى الحدود المصرية الفلسطينية .

٩ — المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥ .

١٠— كتب ابن مماتى فصلا فى المقرر عن عبرة الاقطاعات فى دولة صلاح الدين مرتبة قيمتها حسب درجات الأجناد وجنسياتهم: (كتب قوانين الدواوين ص ٣٦٩) فالاجناد من الترك والاكراد والتركمان ، دينارهم الاقطاعى دينار واحد كامل جنديا .

الكنانية والعساقلة من العربان ومن يجرى مجراهم على عادة الاجناد المصريين دينارهم نصف دينار . والغزاة والقواد ومناهم فى معناهم دينارهم ربع دينار .

(والعربان إلا من شذ منهم دينارهم ⅛ دينار السعر الناقص عن كل دينار جندى ... الخ .

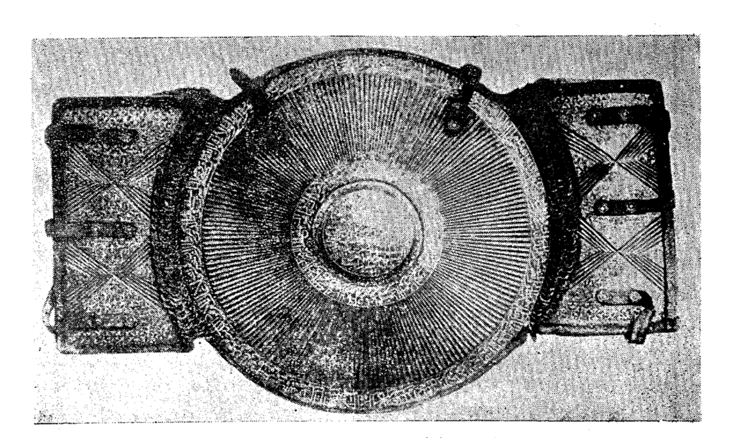
١١ — المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٦ والسلوك ج ١ ص ٧٥ .

١٢ — عرف المقريزى — الطواشى — بأنه الجندى الراكب الذى يتراوح راتبه (رزقه) من سبعمائة الى ألف وإلى ألف ومائتى دينار وهو الذى تتبعه حملة مؤلفة من عشرة جياد أو جمال أو بغال ... الخ مخصصة لحمل اثقاله وعتاده ويصحبه رجل يشرف على دروعه الحربية . وهى لاتعنى « الأغا المعروف » . والطواشى فى منزلة مماليك الأمراء .

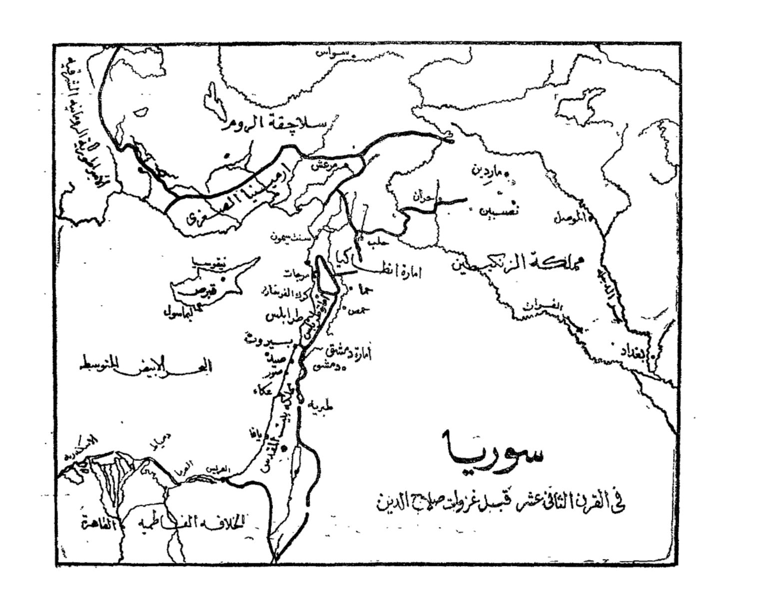
١٣ — الخطط ج ١ ص ٨٦ وانظر السلوك ج ١ ص ٧٥ .

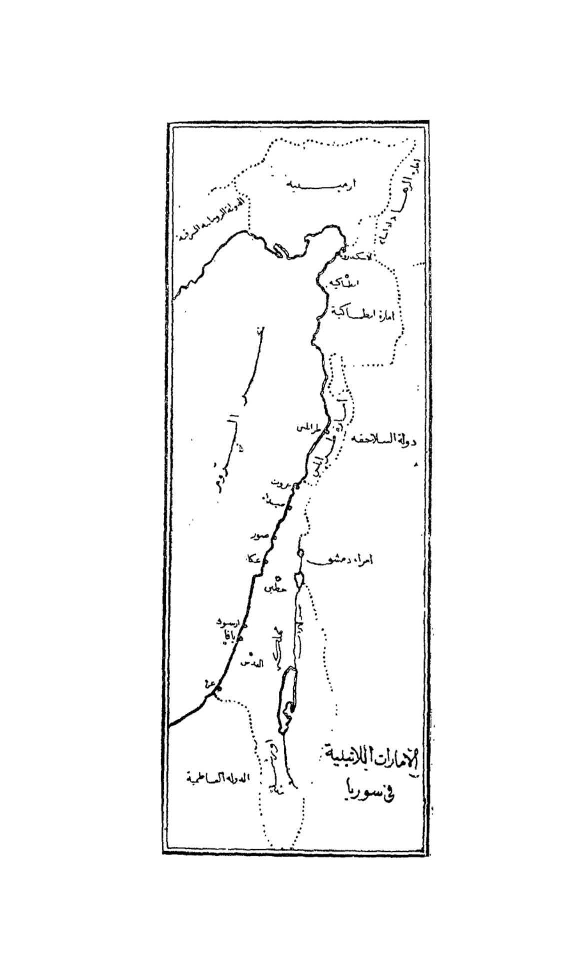
١٤ — ابن الأثير ج ١١ ص ٢٨٤ :

وراجع مقال الأستاذ حبيب فى كراسات التاريخ .



درع إسلامية من المعدن المنقوش


سوريا
في القرن الثاني عشر قبل غزوات صلاح الدين
سلاجقة الروم
سواس
ارمينيا الصغرى
مرعش
ماردين
حران
نصيبين
الموصل
مملكة الزنكيين
الفرات
دجلة
بغداد
حلب
امارة انطاكيا
سنت سيمون
نيقوسيا
قبرص
الماسوك
حماه
حمص
مرجيات
كرك الفرسان
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكاء
امارة دمشق
دمشق
طبرية
يافا
القدس
البحر الابيض المتوسط
الاسكندرية
دمياط
الفرما
العريش
القاهرة
الخلافة الفاطمية
الامبراطورية الرومانية الشرقية


الإمارات اللاتينية
في سوريا
ارمينيه
الدولة الرومانية الشرقية
امارة الرها
الاسكندرونة
انطاكية
امارة انطاكية
طرابلس
دولة السلاجقة
بيروت
صيدا
صور
عكا
امراء دمشق
حطين
ارسوف
يافا
القدس
غزة
الدولة الفاطمية

مراجـــع

المقريزى :

— المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

— كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

جوزيف نسيم يوسف :

لويس التاسع فى الشرق الأوسط .

عبد الرحمن زكى :

معارك حاسمة فى تاريخ مصر — دمياط والمنصورة . القاهرة — ١٩٤٥ .

René Grousset : Histoire des Croisades, 3 vols, Paris, 1934-36

S. Lane-Poole : Saladin, New York 1898.

D. C. Munro : The Kingdom of the Crusaders, New York, 1935.

Recueil des Historiens des Croisades. Several vols. Paris, 1843.

W. B. Stevenson : The Crusades in the East. Cambridge, 1907.

G. Zananiri : L'Egypte et l'équilibre du Levant au Moyen Age. Marseille, 1936

C. Oman : A History of the Art of War. 1898.

E. J. Davies : The Invasion of Egypt in A.D. 1249. by Louis IX of France. 1897

D. Joinville : Memoirs of the Crusades.

فهرست

صحيفة

الصور والخرائط

صحيفة

صدر عن إدارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى للقوات المسلحة

